جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

كلية الدراسات العليا

كليـة اللغات

بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في الترجمـة العامة

ترجمة الصفحات (56 – 107) من كتاب: "عمر البشير وأطول حرب في أفريقيا"

لمؤلفه: بول موركرافت

A Translation of the Pages (56 – 107) of the Book Entitled "Omer ElBashir and Africa's Longest War"

By: Poul Morcraft

إعـداد الطالب: عبد الرحيم بشير محمد بشير

إشراف: الدكتور/ محمد الأمين الشنقيطي

1440هـ - 2018م

الإهـــــــــداء

أُهدى هذا البحث إلى
والدي العزيز
وإلى والدتي العزيزة

اللذان كانا لي خير معين بعد الله سبحانه وتعالى

إلى كل من ساعدني في هذا الجهد،،

قال تعالى: [وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ] وقال صلى الله عليه وسلم: "من لا يشكر الناس لا يشكر الله". الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وأصلي واسلم على إمام المرسلين والنبيين وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسانه إلى يوم الدين. نتقدم بعظيم الشكر للمولى عز وجل كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه على نعمه التي لا تعد ولا تحصى وما من ذلك له على الباحث من عون وتوفيق، كان له الأثر الكبير في إخراج هذا البحث إلى حيز الوجود كما أتقدم بالشكر والتقدير من بعد الله عز وجل إلى: الدكتور/ محمد الأمين الشنقيطي، خير موجه لي في هذا البحث اسأل الله أن ينتفع بعلمه عامة المسلمين أطال الله عمره لما قدمه من عون ومساعده من أجل إخراج البحث بهذه الصورة فما بخل على بعلمه أو وقته فكان نعم الداعم والموجه جزاك الله عنى خير الجزاء. الشكر أيضاً موصول إلى جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا كلية الدراسات العليا – اللغات – قسم الترجمة. والشكر إلى كل من ساعدني وقدم لي يد العون والمساعدة والشكر إلى كل أصدقائنا ورفقاء الدرب.

عمر البشير وأطول حرب في أفريقيا

بعد انتخابات عام 1973م، توقفت اتفاقية السلام بين الجنوب والشمال على نحو مفاجئ لإحدى عشر عاماً. تعثر المؤتمر الإقليمي المنعقد في جوبا على الرغم من الانشقاقات الإثنية والشخصية، على الرغم من حقيقة أن الخرطوم لا زالت تصنع قرارات تنازلية غير مرحب بها. كما نوقش أيضاً مشروع قناة جونقلي المثير للجدل. فقد برهن خطأ الشماليين، في أن الجنوبيين يمكنهم القيام بطعن موضوعي في العملية الديمقراطية المشتعلة، ينأى بهم من ديكتاتورية الشمال.

على ضوء ذلك الأمر، ظلت حكومة نميري تصارع لفصل مكانة الدين في الدستور. على خلفية اقتصادية تم ضخ مبالغ ضخمة من دولارات النفط العربي في السودان، وذلك بعد الزيادات الكبيرة في أسعار النفط بعد حرب (يوم كيبور/ رمضان).

من المخطط له أن يكون السودان سلة غذاء الشرق الأوسط. ضخ الكويتيون أموالاً كثيرة في المشاريع الزراعية الضخمة، في صناعة السكر على وجه الخصوص، كما استثمرت شركة تيني رولاند البريطانية الرائدة ما يزيد على خمسة وعشرين مليون دولار، لتطوير أكبر مشروع زراعة سكر بالقرب من كوستي مع الحكومة السودانية.

كان اكتشاف (الذهب الأسود) هو أكثر التطورات أهمية في تلك الفترة. في عامي 1978 و 1979م صادقت شيفرون الأمريكية على رواسب النفط المستخرجة. كان النفط يوجد بصورة رئيسة في الجنوب. فهل ذلك يعنى أنه نفط جنوبي؟ ظن السياسيون في الجنوب أن الأمر كذلك بالتحديد، كما أرادوا أن يتم بناء المصافي في الجنوب بصورة أكثر أهمية. طلب الجنوبيون أن يتم بناء خطوط النفط المستقبلية لتعبر الجنوب وصولاً إلى الساحل الكيني، وليس عبر الطريق الشمالي الأكثر إمكانية للوصول إلى بورتسودان. يبدو أن النفط ينتج صراعاً بقدر ما ينتج من رفاهية كما هو الحال في العديد من الدول الأفريقية.

صنع التحرير الاقتصادي والاستثمارات الغربية، وأيضاً تطور إنتاج النفط تحولاً واضحاً في السياسة الخارجية كما صنع تقدماً اقتصادياً ملموساً. كان إمداد

السلاح هو البوصلة المحددة لتلك التغيرات بطبيعة الحال في معظم الأنظمة العسكرية. ساعدت الإجراءات الصارمة التي اتخذتها الخرطوم ضد الشيوعية في تدهور العلاقة مع موسكو، ولكن ظل الروس يبيعون أسلحتهم. نضبت تلك الإمدادات حينما دعمت روسيا أعداء السودان الماركسيين في أُثيوبيا. استبدلت الإمدادات الروسية بالصين، بينما ظلت مصر شريكاً عسكرياً ودبلوماسياً مهماً. مع بوادر التحذيرات بتزعزع العلاقات الاقتصادية مع الغرب، بدأت واشنطن أيضاً في بيع مزيد من الأسلحة، ولم يكن الأمر مناهضة للدعم السوفيتي في ليبيا ومصر. تضاعفت مبيعات السلاح الأمريكي حتى غير تجدد الصراع في الجنوب المعادلة. وصف بعض المؤرخين السودانيين تلك الفترة من السلام في الجنوب، والتي صاحبها نمواً اقتصادياً ونجاحاً نسبياً في العلاقات الدبلوماسية، بالعصر الذهبي. تزامنت أفضل فترة للعلاقات مع واشنطن مع حدوث طفرة في الاتفاقات الاقتصادية مع دول أوربا الغربية. في يوليو عام 1978م تم انتخاب نميري ليرأس منظمة الوحدة الإفريقية. بدأ كما أن السودان سيحقق طموحاته القارية أخيراً. تعقدت العلاقات مع العالم العربي بدعم نميري المنفرد للرئيس أنور السادات، في توقيعه على معاهدة كامب ديفيد مع إسرائيل في العام 1978م. أسعد هذا الأمر واشنطن ولكنه أغضب جامعة الدول العربية.

أرسي نميري قواعد السلام مع الجنوب، وبالتالي مع إسرائيل بصورة غير مباشرة، وجعل الاقتصاد مستقراً، على الرغم من أن نظامه العسكري كان متحكماً في الأمور على ما يبدو، لكن السخط داخل الجيش ظل يغلي ببطء، ولم ينته عداء نميري مع خصومه من قادة المعارضة السياسيين، خاصة الصادق المهدي.

أي تسوية آنذاك، كانت تتطلب قراراً يبت في حكم الإسلام في الدولة، ولم تكن المساومات المبكرة على حرية الدين لتكفي الإسلاميين. بصورة جوهرية كانت التسوية السياسية في الشمال الإسلامي، تعني تمزيق اتفاقية السلام مع الجنوب.

إنه مثال متكرر في تدخلات الجيش عالمياً، وهو أن يفشل قادة الانقلاب في معظم الأحيان، في فهم أن ما قاموا به يمكن أن يقوم به آخرون ضدهم. يدرج في إفريقيا أن تقوم الديكتاتوريات العسكرية بتدليل كتائب الضباط المنتسبة لهم، وينغمسوا

فيما يتعلق برتبهم وسجلاتهم، بينما يقومون بتوسعة الاستخبارات العسكرية للتأكد من فاعلية الرشاوى. في الغالب لا يفعلون ذلك والتاريخ يكرر نفسه مرة تلو الأخرى، حتى يكسر هذه الدائرة الرديئة رجلٌ سياسيٌّ مدنيٌّ ذو مقدرة وكاريزما عالية في بعض الأحيان. كان نميري خبيراً عسكرياً لفترة طويلة، ولكنه أخفق في التركيز على اهتمامات جيشه، على الرغم من بريق الأسلحة الجديدة. تدريجياً أصبح نميري مفرط الثقة بنفسه، مدعوماً بحس رسالي سماوي مضطرب، وهي سمات نفسية مشتركة للقادة الذين يظلوا على سدة الحكم لوقت طويل.

أولى نميري اهتماماً حذراً لمتطلبات الأمن في الجنوب، ولكنه أخفق في تقدير أن التفضيل المحسوس يمكنه إشعال الحس القديم بالظلم في الغرب. في الخامس من سبتمبر عام 1975م نصبت وحدات رفيعة من المظليين انقلاباً وأكثرهم من أبناء الغرب الساخطين على النظام. قاموا كما العادة باعتقال بعضٍ من الضباط المخلصين ذوي الرتب الكبيرة، وحاصروا منشآت الإذاعة. قاموا بارتكاب خطأ بالإعلان غير ناضج القبض على نميري ولكن الرئيس قام بتغيير موقعه الليلي مصادفة أو بعناية سماوية خاصة، كما صرح لاحقاً. لم يقم نميري بدمج كتائبه ذات الولاء، لكنه غادر الخرطوم، واختبأ في منزل صديقه في إحدى ضواحي العاصمة. استطاعت الكتائب الموالية بقيادة رئيس الكتائب القائد محمد الباقر من القضاء على التمرد في ساعات قليلة. كان ذلك حدثاً صغيراً في التاريخ الحافل بالانقلابات السودانية، لكنه كان مميزاً؛ لأنه ساعد في جذب نميري، وإظهار اضطرابه باعتقاده أن لديه حقاً سماوياً في حكم السودان. وبذا كانت خطوة قصيرة نحو إيمانه التام بأنه الوحيد، الذي يتحتم عليه حمل رسالة النبي في الأرض.

محاولة انقلابية أخرى ضد نميري:

في الساعة الخامسة من الثاني من يوليو عام 1976م، تم تخطيط انقلاب أكثر تدبيراً. إنها عادة منذ زمن بعيد في السودان، أن يتم استقبال الزوار بحفاوة في المطار، مهما كانت الساعة من الزمن. وكان هذا الأمر منظماً بإسهاب حينما يكون الرئيس عائداً إلى البلاد. تم التخطيط لاستقبال القائد الباقر وحشد من الوزراء لنميري، في رحلته العائدة من أوربا. في إحدى شفاعاته السماوية المتخيلة الأخرى،

وصل نميري مبكراً، وكانت الحاشية تتفرق عندما تفرق حائط من النار، في الممر خارج الاستقبال الرئيسي للمطار.

على وجه السرعة، أرسل الرئيس إلى سيارة ليتم إخفاؤه، وسبح القائد الباقر نحو عملية تدمير التمرد الخاصة به مجدداً، لكن كان يملك القليل من القوات في العاصمة. احتاج أن يستدعي وحدات من حول البلاد، وكانت الأقرب هي شندي. أحبطت الاتصالات، وقام باستخدام خدمات وكالة أنباء السودان السلكية. تدفقت القوات في المدن الثلاث في الجمعة، وسمحت للقوات الموالية للفوز بذلك اليوم. تمَّت ملاحقة الناجين من جنود التمرد في الصحراء وأطلقت عليهم النار.

على الرغم من الدمار الذريع، كان هذا الانقلاب مخططاً له بصورة جيدة. كان من الممكن أن ينجح لو وصل نميري في وقته، وتم اغتياله بصورة ملائمة في المطار. الرجل الذي وقف خلف هذا الانقلاب، كان أقدم أعداء نميري، وهو الصادق المهدي. قام الصادق المهدي بتكوين الجبهة القومية في منفاه في ليبيا، وانضوى تحت لوائها تكوين المهدي لممثلين من الأحزاب التقليدية، جميعهم قد تم إقصاؤهم إبان حكم نميري. كان العقيد القذافي رجلاً ذا قوة صغيرة وأفكار كبيرة، ولديه كثير من أموال النفط لتغذية أحلامه المتعلقة بإنشاء إمبراطورية إقليمية والتي تشمل السودان، وكان أول جزء من هذا الحلم هو الاستيلاء على دارفور. خطط الزعيم الليبي المتقلب الأحوال لاحقاً لتكوين إمبراطورية إفريقية، ولكنه في منتصف السبعينيات كان يصب تركيزه في الإطاحة بنميري. شخَّص الرئيس السوداني أن القذافي يعاني انفصاماً في الشخصية وكلا الشخصيتين شر مطلق. تآمر الأثيوبيون في خطط الانقلاب الليبي؛ لأن أديس أبابا كانت تؤمن بأن التمرد الاريتري سينهار من دون دعم الخرطوم. كان الاتحاد السوفيتي في المؤامرة أيضاً، بانزعاجه من عداء نميري للشيوعيين، وطرده المستشارين السوفيت، بالإضافة إلى ميل الخرطوم الأخير تجاه الغرب. كون القذافي فيلقاً إسلامياً لتنفيذ مخططاته، ولكنه في مخيماته التدريبية جنوب الصحراء الليبية، نظم تدريباً للسودانيين أيضاً، كثير منهم هم أنصار تقليديون مخلصون للمهدي. بعض الأنصار كانوا بالفعل قد اخترقوا المدن الثلاثة ولديهم من الأسلحة ما يجعلهم مستعدين لاشتباك عسكري كانت شراراته لتنطلق من الانقلاب

في المطار. بعض التقديرات رجحت أن ثلاثة آلاف قد قتلوا بصورة سريعة، لكن باضطراب موجع. حوالي مائة من المتمردين أخضعوا للمثول للمحاكمة وأعدموا فورياً. حكم على الصادق المهدي بالموت.

التأييد الشعبي الواسع للسياسيين المنفيين، أجبر نميري على التقدم إلى ما يسمى بالمصالحة الوطنية. كان الرئيس مخادعاً جداً، وأمل في استدراج المنفيين تحت ما يدعى بالعفو العام، وتسبب ذلك إلى إضعاف قوات المنفي. عاد بعض الشيوعيين والأنصار، وكذلك الصادق المهدي، الذي غادر بعدها البلاد غير مقتنع بصدق نميري وإخلاصه. كذلك عاد قادة الأخوان المسلمين. وأبرزهم كان حسن الترابي الذي اختاره ليتبوأ منصب المدعى العام. استعد الترابي لإعادة تكوين قواعد قوة الإخوان وجدد قضايا قانون الشريعة الذي تم تطبيقه إجبارياً عبر البلاد.

اعتقد الجنوبيون أن هذه المفاهيم، تم دفنها في محادثات السلام عام 1972م. بشر نميري أيضاً بالمصالحة الوطنية مع المناطق الغاضبة في السودان الشمالي، ومن ضمنها دارفور وجبال النوبة. وعد بدرجة من الحكم الذاتي مقارنة بالجنوب، على الرغم من مركزية الخرطوم، وخاصة في الخطط الاقتصادية القومية كانت لتثبت التأكيد الإقليمي في الشمال.

على الرغم من المصالحة القومية الظاهرية والأقلية الشمالية الواسعة، لم يستحوذ على السلطة حزب حاكم واحد، لكن استحوذت عليها زمرة من القصر، يرأسها د. بهاء الدين محمد إدريس المطرود من جامعة الخرطوم، وزعم أنه سرب أسئلة امتحان لطالبة مفضلة لديه. بطريقة ما زلف د. إدريس ليدخل إلى باحة نميري، صار لإدريس تأثير كبير على الرئيس، وقدمه إلى بعض الشخصيات المشبوهة، أكثرها شهرة عدنان خاشوقجي، ولد تاجر السلاح المبهرج في مكة عام 1935م وتعلم في الولايات المتحدة، وقيل إنه كان أثرى رجل في العالم وامتلك تحديداً أكبر يخت في العالم، الذي تم تصوير فيلم جيمس بوند فيه. تمتع خاشوقجي بنفوذ عالٍ وعلاقات واسعة في الشرق الأوسط وأمريكا، على الرغم من تورطه في فضائح متعددة، أبرزها الفضيحة ضد إيران.

سواء في منزله بخيام أوستير بيدوين، أو في حفلات الشمبانيا الجامحة في لندن وواشنطن وموناكو، سحر دهاؤه لب نميري، صنع الداهية السعودي الملايين إذا لم تكن المليارات من المشاريع في السودان، التي بدت بأنها شاملة، لكن لم تبن من الأساس، كثير من التكنوقراط الذين أعدهم نميري لإدارة مشاريع النفط التي تدر الدولارات تم تهميشهم من قبل الزمرة القائدة داخل القصر.

العودة إلى الحكم المدني مرة أخرى:

إشارة إيجابية واحدة كانت جيدة؛ وهي وعد حافظ عليه الرئيس الانتقالي اللواء سوار الدهب. كان قد اتفق على الرجوع إلى النظام الانتخابي المعمول به في الستينات. نتج عن ذلك الائتلاف ذاته غير الموحد، على الرغم من أن حزب جبهة الإخوان المسلمين، على عكس ما هو متوقع، قد أبلى بصورة جيدة، كانت خطتهم في البناء التحتي تسير على نحو جيد، على الرغم من أنهم كانوا يتحينون الوقت قبل محاولة إحكام السيطرة على السلطة. على الرغم من الوضع الأمني في الجنوب، فقد حاز بعض المنتخبين مكانتهم هنالك، وهي في الغالب في المناطق الحضرية، ولكن الأحزاب الجنوبية كان لها تأثير محدود في الملتقى المتجدد في الخرطوم.

ترأس الحكومة الجديدة السيد الصادق المهدي، قائد حزب الأمة لمدى طويل، وكان قد حاز تسعة وتسعين مقعداً في السلطة. كان المهدي قد عاد رئيساً للوزراء في العام 1986م، وقد واجه المشكلات الجلل نفسها على الرغم من أن بعضها ازدادت سوءاً، لاسيما مشكلة الحرب. ترأس المهدي ائتلافاً آخر، ولكن المتفائلين شديدي القنوط، اعتقدوا أنه القائد المدني الذي سيقود السودان إلى الأرض الموعودة أخيراً. على كل حال، كان الرجل قد تلقى تعليماً عالياً في أفضل الجامعات البريطانية، ولديه أيضاً سطوة دينية كونه سليل المهدي، وهو الزعيم الديني للأنصار، كما هو أيضاً قائد حزب الأمة بحسبانه رجل سياسة وإمام. كان للصادق المهدي الفطنة والسلطة الدينية، لكبح جماح الإسلاميين الأصوليين بزعامة حسن الترابي، الذي لم ينضم إلى ائتلاف المهدي. إضافة إلى ذلك، ربما كانت الصلة العائلية تسهل التواصل مع الإخوان المسلمين، كون أن الترابي هو صهر السيد الصادق المهدي. في حقيقة الأمر كان معظم الصراع السياسي بين النخب السودانية مرتبطاً

بعلاقات أسرية، ولذا فإن صلة الرحم كانت أقل العناصر إقناعاً فيما يلي التفاؤل. شغل الصادق المهدي منصب رئيس الوزراء وكان وقتها قد بلغ العشرين عاماً قد تم اختياره بالمنفي وحكم غيابياً عليه بالإعدام، بجانب معاركه السياسية. كانت لدى المهدي الفرصة ليثبت جدارته، وقد بدأ بصورة جيدة أنه يمتلك خطابات ورؤية حول إنهاء قوانين سبتمبر البغيضة، والتي من شأنها أن تمثل نذيراً لاتفاقية السلام بجنوب السودان. كان في مقدور المهدي أن يصبح صانعاً للسلام، ولكن كإعادة تأمين، وعد أيضاً بتشكيل وإعادة تزويد الجيش الذي كان يتخذ موقفاً حقيقياً من الحركة الشعبية لتحرير السودان.

فيما يتعلق بالوضع الاقتصادي، تحدث قليلاً، ولو أن كثيرين أملوا أنَّ السلام سيجلب العوائد الاقتصادية الخاصة به. أظهر رئيس الوزراء قليلاً من الطاقة بعد حديثه الأول، عدا تجديد ممتلكات عائلة المهدي، والأراضي التي تمَّت حيازتها من قبل نميري. بدأ أنه لم يكن قادراً على التصرف وفق رؤيته المعلنة. تورط الشماليون في أزمة دائمة تتعلق بالهوية العربية في مقابل الوحدة السودانية. أضيف تدفق الإسلاميين الأجانب لهذا الشعور المتجدد بالعروبة، وعزز ذلك الدعم من قبل العراق والسعودية والأردن وحتى ليبيا. كان القذافي دائماً شديد الحرص على ترويج نسخته من رؤيته العروبية، خاصة أن المهدي الذي كان محمياً من قبله، هو الآن على سدة الحكم.

التلون الذي يطرأ جراء التغير في شكل التحالفات السياسية، والتي يتأسس معظمها على الخسة والدناءة وليس على المبادئ، يتعدى الوصف الموجز. ربما كان أكثرها دناءة هو قرار المهدي بتعيين صهره نائباً عاماً مرة أخرى؛ لإصلاح قوانين سبتمبر التي في الأصل ابتكرها الترابي لصالح نميري. ومنذ أن أوضح الإخوان بصورة جلية أن "لا تبديل لشرائع الله"، فإن القليل من الإصلاح هو ما يمكن توقعه.

كانت المحادثات المتفرقة مع الحركة الشعبية، والتي تقام في أديس أبابا تبعث على الأمل بصورة أكبر. في نوفمبر في العام 1988م، تم الاتفاق على اتفاقية وقف إطلاق نار طارئة، وهي كانت واحدة من العديد في ملحمة الشمال والجنوب. ساعدت الانقسامات التي ظهرت جراء الاتفاق مع الجنوب في انقسام الائتلاف الذي

يقوده المهدي. في فبراير، عام 1989م نجح المهدي في دمج ائتلاف آخر، وهذه المرة مع صهره، جالباً جبهة الإخوان المسلمين للسطح. استقال ضباط كبار من الجيش السوداني، ومن ضمنهم وزير الدفاع، وذلك لأن جبهة الإخوان المسلمين كانت عدائية تجاه أي اتفاقية سلام. تم ترقية الترابي ليصبح نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للخارجية. استولى بعض الإخوان أيضاً على الحقائب الأمنية في الدولة مثل وزارة الداخلية. خلف المشاهد، بنى الإخوان المسلمون مصالحهم المالية متمثلة في النظام المصرفي الإسلامي. في عام 1983م تم تأسيس بنك الشمال الإسلامي في الخرطوم، وهو ذو صلة بالاستثمارات السعودية في بنك فيصل الإسلامي السوداني. كان الإخوان المسلمون يدنون من السلطة العليا لم يكتمل العمل بعد، على أي حال، ليس في عدد قوة خلايا الإخوان المسلمين في الجيش. أرسل قائد الجيش ومعه 150 من الضباط الكبار، إنذاراً نهائياً لرئيس الوزراء، المنوط به إنشاء جبهة قومية للتعامل مع الحركة الشعبية، ولعكس الهبوط الاقتصادي المريع. وقع جميع الأحزاب السياسية، ما عدا الجبهة الإسلامية، والعديدة الكيانات المهنية والاتحادات على الإعلان القومي للسلام، أرادوا حكومة وحدة وطنية، ولكن كما هو الحال دائماً، فإن الوحدة هي المكون السوداني للمراوغة.

حرب الصادق:

كان الصادق يخفق على جميع الجهات. منذ بداية إدارته كان قد التزم بحل أزمة الجنوب. قضى الصادق المهدي يوماً كاملاً في الحديث مع جون قرنق في قمة الاتحاد الأفريقي المقامة بأديس، يوليو عام 1986م. وعلى الرغم من أن المحادثات لم تكن مثمرة، ولكن محادثات أكبر بين الشمال والجنوب جرت في الأشهر التالية استناداً إلى اتفاقية كوكا دام المنعقدة في مارس السابق. يبدو أن هذا الأمر ستتمخض عنه نتائجاً مرجوة. ولكن في أغسطس عام 1986م، نشرت وحدة من قومية الشلك منشقة من الحركة الشعبية، سلاح سام 7 المحمول على الأكتاف، لإسقاط طائرة سودانية في رحلة داخلية من الخرطوم إلى ملكال، والتي قتلت جميع الركاب، والبالغ عددهم 60 بمن فيهم طاقم الطائرة. تلقى المهدي معلومات بإشارات معترضة من الحركة الشعبية بأن قائد الشلك قد تحدث عن إطلاق النار على الملأ،

وصف رئيس الوزراء الحركة الشعبية بالإرهابيين، وأرسل مليشيات من الشمال لتدمير رقعة واسعة من القرى التي يقطنها الشلك. مثل هذا إجابة لما حدث في روديسيا عام 1978م، حيث تم إطلاق سام 7 على طائرة مدنية أقلعت من منتجع لقضاء العطلات في كاريبا متوجهة إلى العاصمة ساليسبيري. شاع عن قائد المتمردين المسؤول جوشوا نوكومو، أنه قد ضحك في مقابلة في الراديو حول الحادثة. أوقف رئيس الوزراء الروديسي إيان سميث محادثات السلام السرية الواعدة مع نوكومو، ناعتاً إياه بالإرهابي. كما أمر سميث بمجموعة من الهجمات الثأرية في المنظمة المحيطة بمكان وجود نوكومو، وهي لوساكا بزامبيا. في كلتا الحالتين، أنهى صاروخٌ روسيٌّ محمول على الأكتاف، كل محادثات السلام الممكنة في الدولتين الإفريقيتين.

حينما أتى المهدي إلى سدة الحكم، كان تأثيره في الجيش ضعيفاً، بينما كان لغريمه من الختمية تأثير أقوى. وكان الإخوان المسلمون يحققون بالفعل كثيراً من التقدمات. ولذا مال المهدي إلى الاعتماد على القوات البديلة، خاصة المليشيات المؤيدة للأنصار. لم تكن إستراتيجية المليشيات بالجديدة، وكانت تتدافع تحت المهدي. لثلاث سنوات لم تخفق الإستراتيجية البديلة فحسب، بل سببت كثيراً من انتهاكات حقوق الإنسان، كما سلخت الجيش القومي.

بصورة مباشرة تم تثبيط قرنق، وذلك جراء استخدام الخرطوم مليشيات القبائل الجنوبية. وكتائب الأنانيا التي ظلت تحارب الحركة الشعبية جزئياً، بسبب العداءات المثارة بالنعرة الإثنية والاختلافات. بدأت حملة عصابة جديدة، بتحقق النجاح وهي عصابة وخاصة بعد فرار أكثر وحدات الحركة الشعبية انضباطاً من القرى. رأى كثير من الفلاحين أن المتمردين كانوا يدفعون جيش الشمال تجاه المدن، مما يقلل من وتيرة تحرشات الجيش بالفلاحة والفلاحين. في حلقة مثمرة، تم اتهام الهجمات الثأرية للجيش على القرى، بأنها تدعم العصابات المتلاعبة بها من قبل الحركة الشعبية. في هذه الأثناء، توجب على الخرطوم أن تحاول إدارة الجنوب. أخفق قنصل الجنوب في تنظيم الإغاثة لكتلة اللاجئين، الذين في غالبيتهم مرضى ويتضورون جوعاً، في مدن الحاميات المترئسة من الجيش.

على الرغم من أن الدعاية السياسية في الخرطوم وصفت الحركة الشعبية بأنها محض بيادق لمضيفهم من الأُثيوبيين ومدربيهم الكوبيين. وطنية جديدة ولجت داخل صفوف المتمردين. تدفق كثير من المتطوعين داخل معسكرات التدريب للمتمردين ومن ضمنهم اليافعين. لعب الجنود الأطفال دوراً كبيراً في الدعاية السياسية للشمال، بينما أزعجوا الداعمين على الارستقراطيين في صالونات الليبراليين في أوروبا وأمريكا. تحسن التدريب والتسليح والانضباط، إلى جانب الروح المعنوية، كما حققت العصابات انتصارات جديدة ضد الإدارة المتهالكة في الخرطوم، والتي تشبه الموتى الأحياء. في نوفمبر عام 1987م استولت العصابات على مدينة الكرمك بالقرب من الحدود الإثيوبية. على الرغم من أنها تبعد حوالي 450 ميلاً من العاصمة، إلا أن السد المجاور كان يوفر معظم الإمداد الكهربائي للخرطوم. للنهايات قصيرة المدى الخاصة بها، شجعت الحكومة الذعر في ثلاث مدن وحثت المواطنين على تسليح أنفسهم ضد العدوان البربري. استولي الجيش على الكرمك مرة أخرى، ولكن الصادق المهدي أطلق عياراً من الرصاص على قدمه لدواعٍ دعائية. لم تك الخرطوم مهددة من عصابة تكتيكية طارئة تمثل أقلية نجحت في الحدود الإثيوبية المتاخمة للحاميات، ولكن الذعر الذي خيم على الشماليين أوضح بصورة جلية، كيف كانت الحكومة متوترة حيال احتواء تقدم الجنوبيين.

واجهت الخرطوم تقلبات أكثر جدية، حينما استولت الحركة الشعبية على مدن مثل بيبور وجوكاو. بنيت الهجمات أيضاً ضد المستهدفات الاقتصادية الرئيسة، مثل منشآت بانتيو النفطية، وبعدها تم تفجير مستودعات النفط بمطار ملكال. أخضع الجيش الشمالي وأمر رئيس الوزراء بنشر واسع المدى للمرحلين، وعلى سبيل المثال نشر المليشيات العربية في منطقة بحر الغزال. خلق الانهيار في الخدمة المدنية إلى جانب المجاعة والجفاف، جيشاً لا يهدأ من الرجال اليافعين العطالي الذين هم بلا قائد يوجههم. لعدة أجيال، حارب تحالف البقارة من القبائل العربية، ومن ضمنهم الرزيقات والمسيرية، قبائل الدينكا الجنوبية ومن ضمنهم التويك والمالوال والنجوك، حيث كانت الحرب حول حصص المرعي والمياه. غالباً ما كانت المنافسة ماكرة، وعادة ما كانت متوازنة بصورة متساوية. قوطعت فترات إراقة دماء شباب القبائل

بالاتفاقات بين الرؤساء والزعماء، وكانت الحكومة المركزية تتوسط عبر الشرطة والجيش في بعض الأحيان. درج أن تتم تسوية النزاعات التاريخية من قبل الكبار، الذين هم على دراية بالقانون والحقوق المتعارف عليها. بعد ذلك، صاحب فترة سنوات نميري انتشار الجفاف من دارفور وكردفان حتى بحر الغزال في منتصف ثمانينات القرن الماضي. سلحت الحكومة مليشيات البقارة بالأسلحة الأتوماتيكية، تلك المليشيات الغاضبة واليائسة؛ بسبب الدمار الذي حل بثروة الماشية؛ جراء الجفاف الذي عصف بالمنطقة. نزح كثير من الدينكا نحو الشمال بسبب حرب الجنوب والمجاعة. لم يكن الأمر هو قضية تتعلق فقط بدفع الجنوب نحو الحدود غير المرسومة، بل بدأت المليشيات في طرد مجتمعات الدينكا المستقرة في الشمال. في مارس عام 1987م تم ذبح آلاف من الدينكا في دارفور، وذلك بعد مهاجمة مليشيات تتبع للرزيقات كنيسة في الضعين، شرق دارفور، حينما تم إخطار المليشيات بممارسات خاطئة، مفادها أن ألواح الطاقة الشمسية في الكنيسة، هي أجهزة اتصال سرية تتبع للحركة الشعبية. وضعت الشرطة مئات من الدينكا في قطار يتجه لنيالا، لكن تم اعتراضه، ومن ثم إحراقه من قبل جنود الجيش الشعبي من العرب. أنكرت الخرطوم حدوث أي من هذه الذبائح، وهي أولى من كثير من الإنكارات المتعلقة بالمآسي في دارفور.

تلا ذلك غارات انتقامية هائلة على الماشية في بحر الغزال. التمس آلاف من الدينكا الحماية من الحركة الشعبية، حيث تحركت مجموعات من العصابات نحو الشمال لاسترداد بعضاً من الماشية، ولمعاقبة الجيش المشترك ومجموعات المليشيات. كان رد الخرطوم متمثلاً في إطلاق ترسانات أكبر من الأسلحة للبقارة، وذلك للتمرد على تقدمات الحركة الشعبية في بداية عام 1987م، ومع ذلك، اندفعت الحركة الشعبية في العمق الشمالي بصورة أكبر. احتلت الحامية المعروفة بحامية البركان أجزاء من جبال النوبة. في واو، عاصمة غرب بحر الغزال، عانت الحكومة بشدة للسيطرة على حاميتها المحاصرة. بعض من الداعمين الحكوميين لمجموعات المليشيات، أتوا إلى الحركة الشعبية. دفعت الخرطوم بمزيد من المال والإمدادات

والأسلحة للحفاظ على ولائهم. وكان ولاء مليشيات بول نوير أمراً رئيساً، على سبيل المثال في الدفاع عن حقول النفط ببانتيو.

كانت نجاحات الحركة الشعبية ناتجة بصورة جزئية عن القيادة والتحكم المنضبطين، اللذين كانت لها قيمتها. انتقد قرنق بنموذج قيادته الذي يشبه ستاليني. حتى قائده الأقدم الذي هو الآن اللواء كيربينيو كوانيون بول، والذي خطط معه قرنق لتمرد البور الذي ابتدأت به الحرب الثانية، تم اعتقاله وسجنه، لم تحصل الحركة الشعبية على كل شيء بطريقتها الخاصة، وأسهم في ذلك هجوم الربيع غير المتكافئ لعام 1988م من قبل الجيش، والذي نجح على غير العادة. العديد من وحدات الحركة الشعبية تم تدميرها في أعالي النيل، ثم في الجنوب الأقصى استولى الجيش مرة أخرى على مدينة توريت الرمزية؛ لزيادة هجومه المضاد الناجح بصورة غير متوقعة في عمق الجنوب، قرر الصادق المهدي، مرة أخرى، إطلاق عنان مليشيات العرب في المناطق الحدودية ضد الدينكا. لم تمنح أي رحمة، قتل الرجال وتم اغتصاب النساء، وفي بعض الأحيان استعبد الأطفال، وتم تسخيرهم خدماً أو عمالاً لقبائل العرب الرحل من المسيرية. أضرمت النيران في المدارس والعيادات ولوثت الآبار بالجثث. كون هذا الأمر حرباً قبلية خاطفة، ووضع نمطاً مستقبلياً لما يعرف بغارات الجنجويد في دارفور بعد العام 2003م. جشع المليشيات في الحدود الجنوبية في أواخر الثمانينات، كان صادماً في أغلب الأحيان، حتى إن الجيش النظامي قام بأفعال ضدهم بين الفينة والأخرى، وذلك لحماية الدينكا وفي جبال النوبة أيضاً، على الرغم من أن المليشيات كانت تعمل تحت إمرة إدارة الخرطوم المتهالكة.

الحرب والمجاعة والجفاف، وحديثاً أمراض الطاعون، كانت تدفع بالجنوب نحو الحضيض. تضور عشرات الآلاف جوعاً، وحتى في المدن المحاصرة من قبل الحاميات، لغمت الحركة الشعبية الطرق وفجرت الجسور، لاستخدام الطعام سلاحاً للحرب. لجأ مليونان من الجنوبيين في الشمال وكثيرٌ منهم كانوا حول الخرطوم. حاول المدافعون عن الخرطوم الجدل في أن الحكومة لم ترتكب تطهيراً عرقياً ضد الجنوبيين، على الرغم من أن التعريف هذا طبقته غارات المليشيات على الدينكا، وذلك لأن الجنوبيين نزحوا تجاه العاصمة على خلاف اليهود الألمان ممن لاذوا

بالفرار بعيداً عن العاصمة النازية برلين. لم يكن هذا الجدل مقنعاً بالكامل، أقلاه لعشرات الآلاف ممن لجأوا في أثيوبيا أو في المخيمات بيوغندا وكينيا في أواخر العام 1988م قطعت موسم الجفاف أمطارٌ غزيرة غير معتادة. انغمر ما يزيد عن مائة ألف منزل حول المدن الثلاث، وذلك يعنى أن الدعم غير الكافي للجنوب سيتم إعادة توجيهه للإعمار في الشمال. كما جلب شهر نوفمبر من العام 1988م اتفاقية وقف إطلاق نار طارئة.

في بداية عام 1989م استولت الحركة الشعبية بهجوم جديد على مدينة ناصر، البالغة الأهمية في أعالي النيل. بعد معركة ضارية في فبراير أعاد المتمردون السيطرة على مدينة توريت المميزة سياسياً، سقطت كثير وكثير من المدن الجنوبية في مارس وأبريل في ذلك العام. على الحدود في جبال النوبة استحوذت الحركة الشعبية على وحدات مكونة من الجيش والمليشيات. وبذا سيطرت الحركة الشعبية على رقع واسعة من الجنوب، وفي انتظار الحاميات الحكومية المتبقية لتسقط كالخوخ الشديد النضوج. كانت جوبا تحت الحصار تحيا فقط بالهواء، ولكن جثث الشحن الجوي التي لوثت نهاية الممر، اقترحت السقوط القريب للعاصمة أيضاً. تضاءلت غارات مليشيات الشمال، بما أنهم أنجذبوا للانضواء تحت حماية الجيش في الآونة الأخيرة. أخضع الجيش السوداني وسقط جاثياً على ركبتيه بحلول صيف عام 1989م.

تصدرت الحركة الشعبية السيادة، وذلك تحت لواء القيادة المستبدة والفاعلة أيضاً من قبل جون قرنق. جال قرنق واشنطن ولندن بوصفه بطلاً فاتحاً، بينما بدأ الصادق المهدي بأنه جبان وخائف في الخرطوم. من الجلي أنه كان يخسر في ميدان المعركة هل سيأتي حلفاؤه العرب لإنقاذه؟

ببداية فترة توليه السلطة، كان على الصادق المهدي أن يدفع للقذافي لقاء خدمات الاستثمارات المملوكة له، تم إرجاع المخالفين من الليبيين وإرسالهم إلى طرابلس ليتلقوا ترحيباً غير سار فور عودتهم . لدى القذافي مال النفط والنزعة الجنونية لاسترداد كل حصان في كل سباق كان قد موله. على سبيل المثال، جميع الأطراف المتناحرة في حرب تشاد الأهلية اللانهائية، غالباً ما كان يدعمهم في الوقت

ذاته. في مرحلة ما في حكم نميري، كان القذافي يرسل المال والسلاح لجون قرنق. توقف كل ذلك، ولكن بصورة مقابلة، أراد القذافي يداً حرة في دارفور، والتي خطط أن يمتصها ويضمها إلى إقليمه.

لم يك بمقدور الصادق المهدي التصريح بذلك علانية والبقاء في السلطة أيضاً، ولذا راوغ وغض الطرف عن التطفل الليبي في دارفور، تم تسليح وتمويل الجيش الإسلامي ومليشيات البقارة من قبل القذافي، الذي كان يتبختر في عدد من المناطق الحضرية المحيطة بدارفور. كان القذافي يهتم بالعمليات عبر الحدود المؤدية لتشاد بصورة أكبر. حينما هزمت بعض القوات التي تحارب بالوكالة لمصلحة القذافي في تشاد، نزحت تلك القوات وغمرت دارفور. درب القذافي جيشه في واحة الكفرة إلى جانب كثير من فرق المرتزقة العرب. كون الفور الأصليون جيشهم الخاص بهم للمحاربة ضد مليشيات العرب الرحل وحلفائهم الليبيين. دعم الفور عبر تشاد إخوتهم على مستوى القبيلة بالسلاح للدفاع عن أنفسهم. سرعان ما دخل الرزيقات في اشتباك عرف بحرب القبائل. دعم الصادق حلفاء القبليين القدامى، منذ أيام المهدي، وفي حقيقة الأمر، فإن بعض الصراعات القبلية تخلفت، كما لو أنها كانت تحدث لقرن سابق قبل المهدي. سحق المتمردون من الفور. وكانت الخرطوم مشوشة بما فيه الكفاية وغير قادرة على التفكير في منطقة أخرى مورطة في الحرب الداخلية مثارة من قبل ليبيا أو تشاد. كانت الفوضى لتسبب حرباً أكبر، وتم نشرها على مستوى عالمي من قبل وسائل الإعلام ونجوم الأفلام الأمريكان بعد العام 2003م.

كانت العلاقات حافلة في الشرق كما هي في الغرب، على الرغم من أن السياسيين السودانيين، بالجنوب والشمال، درجوا على أن يلتقوا بأديس أبابا، وغالباً تحت مظلة الاتحاد الإفريقي. عدَّ نظام منغستو أن نظام الصادق المهدي ضعيف وعدواني. وبخ المهدي في معظم الأحيان الإثيوبيين على تسليحهم واستضافتهم الحركة الشعبية، طامحين في نشر حكومة اشتراكية في الجنوب، وحتى في جميع أنحاء السودان.

حينما عبرت القوات الجنوبية أثيوبيا للاستيلاء على الكرمك، لاحت في الأفق بوادرُ لحرب شعواء بين الدولتين. كانت الخرطوم تدعم حلفاءها من الارتريين ومن قومية التقراي في حربهم ضد منغستو. بينما كان نظام منغستو الفاسد يمد يد العون لحليفته الحركة الشعبية.

الجنوب يتراجع إلى الوراء:

كان الجنوب بشكل عام آمناً، على الرغم من تعزز الصراعات السياسية الملتهبة في جوبا، وحتى الخطط للرجوع للحرب. بعض الانقلابيين العسكريين قد أعفى عنهم نميري بموجب شروط اتفاقيات المصالحة الوطنية. المعارضة في المنفى يهيب، والبعض الذين عادوا إلى الخرطوم تواصلوا مع الجنوبيين، بأسلوب كرر نفسه خلال العقود الثلاثة التالية. الفريق لاقو بعض من خياراته مفتوحة خلال التفاوض والأموال من الصادق المهدي. وفي المقابل ناور نميري لاقو وأقصاه من الجيش مقابل إدخاله الحياة البرلمانية، بحسبانه رئيساً للجنوب ومن ثم أزاله من قاعدة سلطته. هو عسكري جيد وسياسي سيء – كغيره تقريباً من رجالات الدولة من العسكريين في تاريخ الجنوب – لاقو دفع تكاليف باهظة للحصول على نمو خاصة المفضلة، وساعد في توسيع الصدع، وعليه تمكين من لعبه فرق تسد. في فبراير 1980م قام بهندسة فصل لاقو وحل البرلمان وأصبح أبيل ألير يعمل جيداً مع الخرطوم، أو تجول بلا هدف مع بعض الراديكاليين يعود ليعود رئيساً. وكان تفويضه هو استخدام بعض الدول العربية البترولية، لتنمية المشروعات الزراعية والبترولية في الجنوب. تفهم دبلوماسيته ورجوعه رئيساً كانت فترة قصيرة. وأعد ألير تقريراً أدان فيه تقسيم الجنوب، وأن نميري أساء إليه شخصياً لأنه ضمن في التقرير بأن القوات الجنوبية أنقذته من مخاوفه أثناء انقلاب 1976م الفاشل. وببساطة قام الرئيس الغاض بحل البرلمان وتكوين حكومة مؤقتة بقيادة الجنرال المسلم قسم الله عبد الله رصاص. إن خطط نميري لتقسيم الجنوب من كونه إقليمياً قوياً جاء بمناشدة من عدد من القبائل الجنوبية التي تتخوف من هيمنة قبيلة الدينكا الكثيفة العدد، والمركز الاجتماعي وحبها القتال. ورأى آخرون أنَّ ذلك تكتيك واضح من الخرطوم بتبني سياسة فرق تسد، وذلك لغرض التعريب. لقد قام نميري بجولة في الجنوب في

ديسمبر 1982م ولكن استقبلته جموع معارضة خلافاً لجولاته السابقة، حيث استقبل بحسبانه صانع سلام. لقد نفر منه طلاب معادين في مدرسة رمبيك الثانوية المعروفة. الرئيس المشهور بأنه مرهف الحس فقد أعصابه، أغلق المدرسة وأخيراً اعتقل السياسيين المعارضين لخطة تقسيم الجنوب إلى ثلاث مديريات.

في يونيو 1983م وبشكل مفاجئ أعلن نميري في التلفزيون تقسيم الجنوب إلى ثلاث مديريات: هي بحر الغزال، الاستوائية وأعالي النيل، بثلاث عواصم منفصلة في كل من واو، جوبا وملكال. هذا الإجراء أزال جوبا كمنطقة مركزية ساخنة للشقاق والخروج عن مستقبل الوحدة في الجنوب.

عمل النميري على إرساء تعريب الجنوب وأسلمته لتوحيد السودان. وقام النميري بتمزيق اتفاقية أديس أبابا. وفيما هو معروف اصطلاحاً بالقرار الجمهوري رقم (1)، القريب الصلة بأسلوب أورولى، خاصة فيما يتصل بالدولة الشمولية عنواناً لتخويف المناهضين، كونت الخرطوم ثلاث مديريات بسلطات ضعيفة. لقد مات البرلمان الإقليمي في جوبا. أصبح يتم تعيين المحافظين بواسطة الرئيس في الخرطوم. معظم الصلاحيات المالية المحلية السابقة قد تلاشت. أصبحت اللغة العربية هي اللغة الرئيسة الرسمية. الترتيبات الأمنية المتوازنة التي تم الإعداد لها بدقة في الجنوب قد سقطت أيضاً، وأن القوات الجديدة الموحدة سوف يتم إرسالها في مهام إلى الحاميات في الشمال والغرب. معظم هذه المقترحات قد نوقشت سراً لبضع سنين، فيما بين السياسيين الشماليين في عملية المصالحة الوطنية. كان الصادق المهدي والأخوان المسلمون وبعناد، يرون أن الاتفاق الحقيقي للشمال يعتمد على إنهاء الحكم الذاتي للجنوب، وأسلمة كل الدستور في الشمال والجنوب. وكان فيما سبق أن نميري قد سحق المعارضة، والآن توقع خنوع الجنوبيين. لكنه قد قام بزرع أسنان التنين، غير متأثرة بخلق كادر ذي خبرة من الضباط الجنوبيين في جيشه. إنهم يطلبون الحرية للجنوب ونهاية لنميري، وغير متأثرين بخيانته للعهود. والنتيجة الحتمية كانت استئناف الحرب في الجنوب. هذه المرة المتمردون أحسن تسلحاً وأحسن قيادة.

وقد أخذت الحرب عقدين من الزمان، لإجبار الخرطوم على العودة إلى طاولة المفاوضات.

حرب الاستقلال الثانية:

بعض الكتائب الموحدة في الفرقة الأولى للقيادة الجنوبية، قد ذهبت على مضض إلى الحاميات في دارفور. لقد رفضت الكتيبة 105 في بور أن تذهب. عملية التوحيد التي أجريت داخل قوات الشعب المسلحة جاءت بنتائج غير مكتملة. أحس بعض الجنوبيين أن تدريبهم لم يرتقِ بهم لمستوى جيش احترافي ذي خبرة. هذا صحيح بالنسبة إلى أي توحيد لأي قوات غير نظامية لتصبح احترافية كما ظهر فيما بعد من خبرات في زيمبابوي وجنوب إفريقيا.

لقد تم اختيار مجموعة صغيرة من الضباط بشكل دقيق، تم تدريبهم في الكلية الحربية في الشمال، ولكن بنسبة أقصاها 13,5%، وليس 33% المتفق عليها في اتفاقية أديس أبابا.

المظالم العسكرية الحقيقية، والسخط العام على المعاملة المتعجرفة للخرطوم فيما يتصل باتفاقية أديس أبابا، أطلت برأسها في مايو 1983م.

أضحت الكتيبة 105 في بور بعاصمة ولاية جونقلي على نقطة التمرد. أصبح الجو قاتماً بتأخر المرتبات ونقص الأغذية رفض الرائد كاربينو كوانين بول وهو من الدينكا بقيادة المنطقة، السماح لباخرة على متنها جنود شماليون بالرسو في مرسي بور. بعد أسبوع جاءت قوات شمالية من الفرقة المسلحة واقتحمت المدينة. لقد تراجعت كتيبة بور إلى داخل الغابة، وكذلك فعلت قوات في بيبور، هم ومعهم كتائب أخرى عبروا إلى داخل أثيوبيا بأسلحتهم.

من الواضح أن تمرد بور والقرار الجمهوري رقم (1)، كان بداية لحرب جديدة.

كان تمرد بور والقرار الجمهوري رقم (1) بداية لحرب جديدة، وذلك بعد مضي شهر من تلك الأحداث. آلاف من القوات الجنوبية دخلت إلى أثيوبيا وآخرون أقاموا معسكرات إلى الغرب في غابة معزولة. بعض الخوارج في أنانيا المعارضين لاتفاقية أديس أبابا، التحقوا بالهاربين من الجيش الموحد. تجمع معظم المتمردين في

إقليم قمبيلا بأثيوبيا. بالإضافة للمتمردين من الجيش النظامي وأنانيا العنيدين وعنصر ثالث، مجموعة الطلاب الثوريين بقيادة باقان أموم أوكيش قد انضموا لهم. لقد أصبح أوكيش فيما بعد الأمين العام للحركة الشعبية.

من الذي سيقود التمرد الجديد في الجنوب؟

لقد سحب نميري بعض أميز الضباط الجنوبيين وألمعهم وتمت ترقيتهم موالين في الجيش الموحد. لقد قصد الرئيس استخدام العقيد جون قرنق وهو من دينكا توك، لإبطال تمرد بور. لكن المؤسف للخرطوم أن قرنق كان جزءاً من التمرد، وكان من المفترض أن يقمع. إذا كان الصادق المهدي الشخص الذي يريد أن ينتقم سياسياً من النميري، أصبح جون قرنق العدو العسكري الأساسي له. الفرق بينهما أن قرنق أكثر اتخاذاً للقرار، عنيف وفي النهاية يُعَدُّ معارضاً أكثر نجاحاً.

وُلِدَ قرنق في أسرة فقيرة في عام 1945م في شرق ولاية جونقلي. واصبح يتيماً وهو في العاشرة من عمره، قام عم عطوف بكفالة تعليم الرجل الشاب المواطن في أحسن التعليم الثانوي، أولاً في جنوب السودان، وبعد ذلك في تنزانيا. وأخيراً ضمنت له بعثة دراسية في الولايات المتحدة في كلية قرنلا في إيوا، وبعد ذلك منح بعثة في جامعة كالفورنيا بيركلي، لكنه قرر العودة إلى جامعة دار السلام. وخلال وجوده في أمريكا، يقال إنه قد أعجب بنجاح بوتقة الانصهار للمجتمع في أمريكا، وساعد ذلك على إيمانه بضرورة سودان ديمقراطي موحد خال من العنصرية: مؤخراً بالنسبة لرسالة الدكتوراه، كانت في المصير المخفق لقناة جونقلي التي اقترحها البريطانيون في سنة 1970م، وبدأت عام 1975م. وباندلاع الحرب الثانية في الجنوب كان ثلثان من القناة التي يبلغ طولها 228 ميلاً قد تم بناؤهما. والآن واحدة من أكبر ماكينات الحفر الألمانية، ترقد مصدأة عنواناً لموت أكبر مشروع تنموي بسبب الحرب. بعد دراسته المبدئية، قام قرنق بثاني محاولة ناجحة له للانضمام للتمرد، وكان ذلك قبل ستة أشهر من اتفاقية أديس أبابا. في المرة الأولى حكم عليه بأنه صغير جداً بالنسبة للحرب. لقد دفع به بسرعة بالنظر إلى تعليمه. بعض قادة التمرد المخدمين في أنانيا استاءوا من عدم خبرته في ميدان القتال. هذا ما جذب قادته الشماليين في جيش ما بعد أديس. لقد تم ترفيعه من نقيب إلى عقيد، وأرسل

إلى بعثتين دراسيتين في أمريكا، أحدهما دراسة مدنية وأخرى عسكرية متقدمة في الجيش الأمريكي، بمدرسة المشاة في فورت بنق بجورجيا. لقد أصبح قرنق أيضاً يحاضر في الزراعة بجامعة الخرطوم. وأصبح أيضاً من أحسن المتعلمين والمدربين الجنوبيين في الجيش، وبعيداً من المؤامرات السياسية في السودان، أو هكذا كان يعتقد جنرالات الشمال، وبشهر قبل تمرد بور كان قرنق يخطط للحرب الجديدة، ورسم برنامج لتكوين الحركة الشعبية لتحرير السودان.

التحق قرنق برفاقه الهاربين في أثيوبيا، ورتب تكوين الجناح العسكري لحركته الجديدة: الحركة الشعبية لتحرير السودان، والجيش الشعبي (الجيش الشعبي لتحرير السودان).

وسرعان ما تضخمت الرتب بوافدين جدد من الهاربين، وازداد عدد المتمردين المتشددين وأصبح عدد الرتب فيها مبدئياً 3000 متمرد. ما زال بعض القادة مستائين من افتقار قرنق لمهارة حرب الأدغال، وغيورين من تعليمه، والترقي السريع الذي حصل عليه بمجاملة من الخرطوم. ولكن مهاراته القيادية الواضحة المكتسبة اليوم، وقضية الوحدة السودانية مقابل استقلال الجنوب، قد لمعت في مصلحة تأسيس الحركة الشعبية وفوق ذلك كله هزيمة الخيانة العظمى في الخرطوم لنميري. أكثر من ذلك القداسة الحيوية لأثيوبيا، أملت دبلوماسية الصمت في موضوع انفصال الجنوب، تحت الإمبراطور الكبير والقائد الشيوعي الحازم منقستو هايلي ماريم، الذي خلف الإمبراطور في عام 1974م. وتأييد شمال السودان لانفصال اريتريا جعل من انفصال الجنوب موضوعاً غير ملائم.

لقد كتب قرنق البيان الجديد للحركة الشعبية، وقد وافق عليه الستلين الإفريقي الكبير منقستو بنفسه. لقد كان البيان راديكالياً نمطياً وضد الانفصال، وذلك ملائمة ملاءات منظمة الوحدة الإفريقية ودريج.

كان من الواضح في بيان قرنق وقانون العقوبات المصاحب، أن الجيش وليس الشعب هو المصدر الأساسي للسلطة. فيما بعد لطف قرنق من التبجح الماركسي في البيان المبدئي من خلال إذاعة الحركة الشعبية. تضمين علماني ديمقراطي في الدعوة للسودان الجديد، جذب بعض السودانيين. كما لطف قرنق من

الخطاب المعادي للمسلمين، على الرغم من أن الدعاية الإعلامية كثيراً ما كانت ضد العرب. إنه كان يريد الوصول إلى المسلمين الأفارقة في دارفور وجبال النوبة، الذين يتكون منهم جزء كبير من الجيش النظامي السوداني. كان قرنق جيد الإستراتيجية، وعليه لم يهمل الولايات المتحدة بحسبانها مورداً داعماً له، على الرغم من أن واشنطن استندت إلى مبدأ استقلال جنوب السودان، لإضعاف النظام الإسلامي في الخرطوم.

ما زالت بقايا مجموعة المتمردين القدامى، الذين أعادوا تسمية أنفسهم أنانيا تو، يقاومون دعوة الشمولية في الجيش الشعبي. لقد جاءت بعض المقاومة من مجموعات النوير أيضاً، التي بدأ الجيش الشمالي تسليحها لتعطيل خطوط إمداد الجيش الشعبي في إثيوبيا. وكذلك دعمت المليشيات الاستوائية الخرطوم، في عمليات يطلق عليها كثير من الاستوائيين اسم "جيش الدينكا" المعروف بالجيش الشعبي.

قام دريج في مايو 1984م بتشجيع قرنق على إصدار أمر باغتيال قائد أنانيا تو قاي توت. ثم قاد فاولينو متيب الأحياء من أنانيا إلى غرب أعالي النيل، حيث وقع على اتفاقية مع نميري. وكان سلفاكير الذي ينتقد قرنق من الداخل، كثيراً ما يقول: إن أول رصاص الجيش الشعبي استخدم لقتل الانفصاليين. لم ينفصل كير عن رئيسه فيما انفصل لام في عدد من المناسبات. أكول أوضح أنه من 1984م إلى 1989م قتل من الجيش الشعبي بواسطة المناوئين من المليشيات الجنوبية أكثر ممن قُتِلَ في الدائر بين الجيش الشعبي والجيش الشمالي.

أول هجوم للجيش الشعبي كان من أثيوبيا عام 1983م، حيث تم توجيهه ضد منطقة النوير داخل السودان. لقد قام قرنق أساساً بإنشاء قاعدة دائمة في شرق الاستوائية في بوما بلاتوا بالقرب من الحدود الإثيوبية. أحياناً يتحالف الجيش الشعبي مع أنانيا تو نوير آخرين، لضرب مواقع شيفرون بالقرب من بانتيو في قلب أرض النوير. وكانت الخرطوم قد وعدت الأمريكيين بأن الجيش أكثر من كونه قادر على حماية المنشآت البترولية.

لقد قتل ثلاثة من الأجانب العاملين في البترول، وجرح عدد قليل في غارة نفذها المتمردون في فبراير 1984م. لم تقتنع شيفرون برد الخرطوم، وانسحبت من حقول البترول. فيما بعد فرضت الولايات المتحدة حظراً على تصدير البترول، ولكن الامتياز الأصلي للبترول الخاص بشيفرون الذي كان ينبغي أن يكون محور الثراء السوداني، انتفع به الصينيون والماليزيون (وقليل من السودانيين). وسبق للجيش الشعبي أن قام بأسر سبه عمال فرنسيين، يعملون في مشروع قناة جونقلي. كان لقرنق عداء شخصي تجاه القناة، ولكن الهجمات على المشروعات الاقتصادية الكبيرة على قلتها في الجنوب، في وقت يحاول فيه إحراج الخرطوم بأنها تعوق التنمية الاقتصادية في الجنوب، أن ليس فيها بنيات ذات قيمة أو عمل.

في العقدين التاليين للقتال، من الصعوبة بمكان إقامة اقتصاد ذي معنى في الشمال والجنوب المتآكل وازداد الأمر سوءاً عند انتشار الحرب في الشرق والغرب بشكل هائل، ولكن في بلد هش.

نهاية لعبة نميري:

خلال معظم سيرة حياته العسكرية، كان نميري مسلماً تقليدياً شديد الملاحظة، وأنه لا يتميز بالتعصب الإسلامي. في الحقيقة أن الرئيس الذي كان يعاقر شرب الويسكي ويدخن السجار أقام دولة علمانية. وكثيراً ما قام بحملات ضد الإخوان المسلمين. ولكنه انتقل تدريجياً وبشكل كبير، بالإيمان تجاه رسالته الإسلامية الشخصية. لقد فسر هروبه من عدد من الانقلابات والاغتيالات بأنه تدخل إلهي. وكان يؤمن أن نجاته بعد إجراء العديد من عمليات القلب، علامة من علامات الكرم الإلهي. وعلى الرغم من التشاؤم والهمس حول مستوى الأطباء والمستشفي الأمريكي. بدأ الإعلان عن الأمور الدينية، ونشر كتاب في عام 1980م حول الإصلاح الروحي. لقد شرع في خطط سرية مع الإخوان المسلمين بواسطة المبدع الترابي، من خلال إعلان سبتمبر 1983م بتطبيق الشريعة في كل السودان، بما في ذلك الجنوب. لقد عدَّ كثير من الجنوبيين قوانين سبتمبر أنها إعلان حرب، على الرغم من أن ناس الريف (الناس العاديين) في الشمال رحبوا بالقوانين القاسية التي سوف

تنظف أماكن المتعة في الخرطوم. وفي النهاية أعلن نميري نفسه قائداً دينياً بعنوان الإمام.

جاءت العقوبات مثل قطع اليد للسرقة، والرجم للزنا، لم تطبق فقط بل تذاع. وأجبر الوزراء على حضور تنفيذ الإعدامات وقطع الأيدي. وحتى إن النائب العام المتشدد حسن الترابي أغمي عليه في أولى حادثة قطع يد. ونقل جهازا الإذاعة والتلفزيون العقوبات بكل تفاصيلها. المواطنون الشماليون المتعاطفون مع عمليات المداهمة لحفظ القانون والنظام، أخبروا الأجانب أن الشريعة الإسلامية تعنى أن شوارع المدينة أضحت من أكثر الشوارع أمناً في إفريقيا، وهذه حقيقة. والجدل حول القانون والنظام أنه أضعف قليلاً عندما قام نميري بإطلاق صراح 10,000 من مرتادي الإجرام من سجن كوبر بالخرطوم. وكانت حجة الرئيس أنه فعل ذلك العمل الرحيم تأسياً بالرسول صلى الله عليه وسلم، الذي قام بالعفو عن الناس في مكة. هذه المقارنة غير المؤسسة بين نفسه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم، كانت كافية أن تجعل أعضاء تنظيم الإخوان المسلمين الغيورين، أن يهتموا قليلاً بالحالة العقلية لرئيسهم. وكانوا في حيرة ممَّا إذا كانت السلطة المطلقة، أو أن مرضاً قد غير عقله، أو ما إذا كان التحول الأخير جعل منه إسلامياً راديكالياً. بينما عاني كثير من المواطنين العاديين من تدنى الاقتصاد. والآن لا يمكنهم البحث عن البلسم الشافي لصحتهم النفسية في خمورهم البلدية. وكان المسافرون للسودان في السابق يندهشون لأجواء المرح والاستهلاك الكثير في الريف، لكميات كبيرة من الكحول البلدية (المريسة) وحتى في قلب المناطق الدينية مثل دارفور. وأنهم إذا ما استمتعوا بالمشروبات الروحية الغربية، عادة ما يمجدون قيمتها العلاجية. لقد أصبح الويسكي هو الخمر المفضل لكثير من أفراد الطبقة الوسطى في العاصمة، والآن قد أريقت آلاف القوارير من أجود أنواع الويسكي الاسكتلندي في مياه النيل (ألفت كثير من النكات المحلية حول سكر الأسماك) أو تم تدميرها بالبلدوزر. وكل الأفعال المثيرة يتم إعلانها.

وعما إذا كان السياسيون والعاملون بالخدمة المدنية في إمكانهم اتخاذ قرارات سليمة، عليهم أن يبرهنوا على ذلك من خلال الاستمرار في جانب البرود والرزانة.

أكثر ما يمكن عمله أنهم احتفظوا بما لديهم من ويسكي مخبأ بشكل دقيق، وأنهم انتقائيون حول الأصدقاء، الذين يمكن مشاركتهم علاجهم الغربي (شرب الويسكي).

بدأ النميري الانغماس والتمشدق بخطب دينية طويلة عبر الإذاعة، يلقي باللوم على كل شخص ما عدا نفسه حول الانهيار الاقتصادي. لقد هاجم الذين حققوا أرباحاً فاحشة، بألفاظ وخطب لم يتعود على سماعها مستمعو الإذاعة المحافظون من إمام. واستمر في مقارنة نفسه بالرسول صلى الله عليه وسلم، وازدادت اتهامات البدع والجنون بسرعة. لقد تم سحق أي معارضة، وفرضت الأحكام العرفية وقانون الطوارئ، ومحاكم الطوارئ أقامت أحكام الغرامات، الجلد، بالإضافة إلى الإعدامات وقطع الأطراف. لقد ساد جو الإرهاب، وبلغ أعلى مدى له بإعدام محمود محمد طه، زعيم جماعة صغيرة معتدلة تدعى الإخوان الجمهوريين. وتوجد أيضاً أخوات أصبحن داعيات لدعوة طه لمساواة المرأة بالرجل، وإصلاح الدين أعلى أساس المثالية الصوفية، التي يتبناها معظم الناس بالعاصمة المثلثة، يعاملون الإخوان الجمهوريين، يحترمون الطريقة المهذبة التي يوزع بها الجمهوريون كتيباتهم التي تدعو إلى التعايش السلمي، ليس فقط بين الشمال والجنوب، ولكن مع إسرائيل والتسامح، وفي المناسبات السعيدة.

هؤلاء الجمهوريون، لم ير عنهم أنهم يشكلون أي نوع من التهديد. وفي الحقيقة أن طه أتهم بالفتنة الدينية قبل فترة بعيدة تعود للستينات. ولكن في الثمانينات كان وقتها قد وصل به العمر إلى 76 عاماً. ويُعَدُّ في ذلك الوقت شيخاً وقوراً ومثقفاً ويحمل أفكاراً غريبة. لقد نشر طه كتيب غير مؤذ في ديسمبر 1984م، انتقد فيه قانون تطبيق الشريعة في الجنوب، ونادي بالرجوع إلى الحريات المدنية في كل أنحاء البلاد. وقرر النميري أن يتخذ من طه نموذجاً. وبسرعة حكم على طه وأربعة من أتباعه بالردة. في تلك المرحلة ظهر الرئيس يعتقد أنه قد فتح خطاً ساخناً مع الله، وبسرعة قام بشنق طه بينما سمح لأتباعه الأربعة بالتوبة وخلَّى سبيلهم. لقد ألقيّ جسد طه في الصحراء ومنعت تقاليد الدفن. وتحت الحماسة الدينية المفرطة لنميري، نمت قوة الإخوان المسلمين بشكل أكبر، بسبب عبقرية حسن الترابي التنظيمية. ولكن

المأساة أنَّ تدريبه القانوني وموقعه نائباً عاماً لم يكبح السيطرة الرئاسية وسيادة الظلم والإرهاب.

انحراف نميري عن الإسلام أثار قلقاً بين الإخوان، لكن الترابي فرض عليهم ضوابط صارمة. لقد أخبروا بأن الوقت غير مناسب بعد للإضراب. بدأوا في بناء نفوذهم بتريس – وفق نموذج خلايا لينين – في أوساط المهن والمدارس والجامعات، ولكن فوق ذلك كله في الجيش. كذلك قاموا ببناء شبكة مالية ممتدة في الخليج ووسط السودانيين في المنفي.

والآن يستطيع السودانيون العاملون في الخارج، توجيه خدمتهم لوجه الله سبحانه وتعالى ومصالحهم التجارية، من خلال البنوك الإسلامية الجديدة.

على الرغم من الإصلاحات بالبنوك، استمر الاقتصاد السوداني في التدهور، وقادت إجراءات التقشف التي انتهجتها الحكومة إلى الإضراب. وسمي إضراب السكة حديد بأنه خيانة للوطن. وكان رد النميري الحتمي نشر الجيش لسحق الإضرابات العمالية. وأنه من الصعوبة بمكان إرسال الجيش لقمع إضرابات القضاة، الأطباء، المهندسين وأساتذة الجامعات. لقد تراكمت الديون الخارجية وأصبح من غير مقدور على خدمات الديون. ارتفع التضخم ارتفاعاً شديداً. قادت إجراءات البنك الدولي إلى حتمية رفع الدعم عن السلع الأساسية. وتدخلت الطبيعة وأصبح العالم مدركاً بالمجاعة الإنجيلية في أثيوبيا عام 1984م لكن التحرك الذي تم إجراؤه في السودان على المستوى الدولي خاصة في دارفور، كان قليلاً. عليه فإنَّ مئات الآلاف من مواطني غرب السودان الذين ضربتهم المجاعة، قد نزحوا إلى العاصمة المثلثة، واتخذوا لهم مستوطنات من الأكواخ، بينما قام الجيش بإرجاع الناس الذي أصابهم اليأس إلى دارفور.

في عام 1985م عشرات الآلاف من الدارفوريين أهلكتهم المجاعة. وذهبت المنظمات الغربية الخيرية لمساعدتهم، لكنهم أوضحوا أن المشاريع الكبيرة على طوال النيل مشاريع تزرع الحبوب، لكنها لم ترسل إلى دارفور. يبدو أن المجاعة والجفاف لم تحركا نميري داخل بلاده. في حين أن النميري يزين نفسه بعناوين إضافية، من مشير إلى قائد أعلى وإمام، وأيضاً كان نميري رئيساً للوزراء ورئيساً للجمهورية. وبدأ

الحرب مرة أخرى في الجنوب. وأفلس الاقتصاد وعلى تحييد مؤيدة السابقين على المستوى السياسي والديني. لم يبق معه من حلفائه سوى الإخوان المسلمين الذين ظلوا يحفرون عميقاً وبعيداً في كل طبقات المجتمع.

وأخيراً في مارس 1985م التفت إليهم وحملهم كل مصائب البلاد. تم اعتقال الترابي وإخوان آخرين بارزين بتهمة التآمر الديني. والمئات من عامة أعضاء الإخوان المسلمين تم حبسهم. وأقام النميري محاكم غير شرعية بقضاة غير مختصين، وعاقبت حتى العامة بالجلد، القطع والإعدامات. وبدأ نميري غير مهتم بحالة الغضب العام. لقد سافر إلى واشنطن لمقابلة الأطباء والاستجداء لمزيد من القروض من البنك الدولي والولايات المتحدة الأمريكية.

ما كان له أن يغادر لو أنه له فهم يميز به وضعه الهش. وعم العاصمة إضراب عام في 14 أبريل 1982م. ولم يتبقَّ للرئيس من مناصر سوى الجيش. لكن كثيراً من كبار الضباط انزعجوا لإذلال المجتمع السوداني. الفريق عبد الرحمن سوار الذهب وزير الدفاع، أعلن من خلال الإذاعة القومية أن الجيش يحترم رغبة الناس وعزل الرئيس، ولكنهم سيبقون في السلطة مؤقتاً. لقد حاول النميري العودة للخرطوم. طائرته غيرت مسارها إلى القاهرة. صديقه العسكري الرئيس مبارك وفر له فيلا فاخرة في ضاحية راقية حيث أقام أربع عشرة سنة تالية. ونزل السودانيون إلى الشوارع، ابتهاجاً بسقوط الديكتاتور العسكري كما فعلوا من قبل في عام 1964م.

التاريخ يعيد نفسه مرة أخرى في مسرحية فكاهية. أو ربما أن لهم ذاكرة قصيرة عندما عاد نميري للسودان في مايو 1999م لقد استقبل بترحاب رائع. في العام التالي ترشح ثانية للرئاسة ضد عمر البشير الذي في المنصب لكنه حصل على أقل من 10% في الانتخابات "ما زال الناس يحبوني ولكن زورت الانتخاب" أو هكذا كان يحدث نفسه.

لقد جاء العسكر السلطة مرة أخرى. إنهم ببساطة غيروا الجنرالات رؤساء للدولة. لقد حاولوا دورتين من الحكم بواسطة القائد العام والسياسيين. أنشأوا فترة عامين من الحكم المدني الشائك: الحرب في الجنوب مشتعلة. وعليه ها هي الخطوة

التالية. الفريق سوار الدهب عن أن يأتي بالمدنيين. لقد اجتمعوا في نادي الأساتذة في جامعة الخرطوم للبحث حول جبهة مشتركة للنظام الجديد.

لقد أطلقوا على أنفسهم "القوى الحديثة". ولكن نكصوا بسبب العداءات القديمة. ويتشكك العسكريون بشكل تقليدي في أن السياسيين مترددين. وعليه تحركوا بسرعة وكونوا مجلسهم العسكري الانتقالي. لقد تم تكوينه من فئات مختلفة كالمعتاد، ولكن ضم المجلس في الأساس قادة كبار الضباط في الوحدات المتميزة، التي تسيطر على المدن الثلاث إذا دعت الضرورة. ويحكم المجلس العسكري بموجب حالة الطوارئ، لكن الجنرالات أطلقوا صراح كثير من السجناء السياسيين في سجون نميري. وقاموا أيضاً بود العدو التقليدي المكروه جهاز أمن الدولة.

بعض من الأصدقاء المقربين للرئيس المخلوع قدموا للمحاكمة. أحدهم سبب حرجاً لارتباطه الاستخباراتي المهم: نائب الرئيس عمر محمد الطيب الذي كان يدير جهاز أمن الدولة. تفاصيل محاكمته التي كانت متلفزة أغضبت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية والموساد الإسرائيلي، لأن الطيب كان لاعباً مركزياً في عملية موسى. وبتنظيم من السفارة الأمريكية في الخرطوم حوالي 8,000 من اليهود الفلاشا تم ترحيلهم جواً من معسكرات سودانية، حيث هربوا من المحاكمات والمجاعة في أثيوبيا. العملية شبه المستترة.

لقد قامت إسرائيل في يناير 1985م بكشف العملية شبه المستترة بطريقة معممة. وذلك قد دفع الدول العربية للتأثير في السودان لإيقاف رساله الرحمة. بينما تم إنقاذ آلافٍ من الفلاشا المتبقين، عالقين في منطقة القرن في عمليات مشتركة بين وكالة الاستخبارات الأمريكية والموساد. لقد أشيع أن الطيب قد دفع له بعض ملايين الدولارات الأمريكية لمساعدة أصدقائه في الاستخبارات الأجنبية. لربما يكون ذلك سبب الغرامة الكبيرة له عن المحكمة، ولكن دون الحكم عليه بالسجن المؤبد. وقد حكم المجلس العسكري في التئام مع مجلس وزراء مؤقت ليست له أسنان، ويضم بعض الوزراء الجنوبيين، ولكن ليس معهم جون قرنق الذي رفض السفر إلى الخرطوم. لقد قوَّم الوضع بأنه نظام لنميري من دون نميري. يلتقي المدنيون والعسكريون من وقت إلى آخر، لمناقشة إمكانية دستور جديد. الشريعة والحكم الذاتي

للجنوب. ومن غير المستغرب ألاَّ يتم التوصل إلى حل في الأساس، لأن القادة المؤقتين يعلمون أن هناك انتخابات ستقام. إنه من السهل لأي سياسي أن يزيح المسئولية. ويؤجل أي قرارات مزعجة. للحصول على الموازنة صحيحة بين الاحتفاظ بالرجال في زيهم العسكري وإطعامهم والدفع لهم بسخاء. لكن كثيراً ما يتعرض السياسي إلى الخداع من الجيوش في إفريقيا والشرق الأوسط. النميري عمل على إضعاف كل الجيش، وجفف مواردهم في السنين الأخيرة لحكمه. مع بداية تجدد الهجوم بواسطة الجيش الشعبي في الجنوب، الجيش النظامي المقدر بحوالي 60,000 خفض إلى إستراتيجية دفاعية للسيطرة وإعادة الإمداد للحاميات في المدن الكبيرة في الجنوب.

وربما يتباهي الجيش الشعبي أن له أكثر من 10,000 مدرب من المتمردين المتفرغين للعمل: وربما ضعف هذا العدد إما أنهم في تدريب أو مليشيات تقوم غير متفرقة. سقوط نظام نميري المكروه أعطى الحركة الشعبية دفعة كبيرة. على الرغم من أن بعض الجنوبيين قد اشتركوا في الحكومة المؤقتة في الخرطوم، فإن حقيقة أن يظل قرنق بعيداً، قد زاد من لمعان أسهمه في الجنوب. وأيضاً قد جعله ذلك مهماً للخرطوم لإغرائه كتحول في ميزان القوى العسكرية في الجنوب وتم اقتراح الحاجة إلى اتفاق.

لقد عقدت اجتماعات سرية في أثيوبيا في بداية عام 1986م، لكن مفاوضات حكومة الوحدة الوطنية أخفقت إخفاقاً لا يمكن منعه، بسبب المواقف المتشددة بين الأحزاب السياسية خاصة الإخوان المسلمين. وإن بعض كبار الضباط في الجيش لم يميلوا إلى إبطال سياسة نميري حول قانون الشريعة. تلك الحرب سيظل لها أمد طويل قبل أن يجبر الاستنزاف الشمال التوصل إلى حل وسط.

لقد التزمت الحركة الشعبية لتحرير السودان بالوحدة السودانية في هذه المرحلة، وعارضت أهداف الحرب الاريترية، لقد قدمت الخرطوم الدعم السياسي ومنحت حق اللجوء للمناوئين حروب منقستو. ولكن ذلك الدعم، لا يتناسب مع ما حصل عليه الجيش الشعبي من إمدادات أسلحة ومدربين من أديس أبابا.

لدى الجيش الشعبي مصادر أخرى للإمداد، وكثير من عملياتهم كانت تجرى بعيداً عن ملاذاتهم الآمنة في أثيوبيا. غير أن الاتصال بمنقستو كان وما زال ذو قيمة كبيرة بالنسبة لهم.

إلى أي وجه كان المهدي يود أن يتجه؟

كانت العربية السعودية مبسوطة اليد فيما يتصل بالاعتمادات البترولية والقروض. وأصبحت دول الخليج كريمة للغاية بعد سقوط نميري. غير أن الأمريكيين لم يكونوا متحمسين. كانت واشنطن متضايقة من كشف الخرطوم تورط وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في عملية موسى، أثناء المحاكمة الطويلة لـ الطيب. أضف إلى ذلك الهجوم الأخير على موظفي السفارة الأمريكية في الخرطوم من قبل المتطرفين الفلسطينيين: لقد أقتيل السفير الأمريكي. بالخرطوم عام 1973م، على يد رجال ياسر عرفات. بعد ذلك خفض حجم السفارة. وعلى الرغم من أن المهدي زار واشنطن إبان توليه رئاسة مجلس الوزراء، ظلت الولايات المتحدة بعيدة، لكن ظل السعوديون يقدمون مساعداتهم. لكن الخرطوم كانت محتاجة لأموال الولايات المتحدة والبنك الدولي لإنقاذ الاقتصاد. لقد تم إلغاء اتفاقيات عدنان خاشفجي المخادعة، وأن الخرطوم أيضاً غيرت موقفها من صاحب المصنع في ألمانيا الغربية الذي كان سيدفع حالاً، بغرض طمر النفايات النووية في الصحراء الشمالية. وكانت الحرب في الجنوب تكلف تقريباً حوالي 2 مليون دولار يومياً والديون على القروض الجديدة الضخمة من السعودية والخليج، وكذلك ديون الأسلحة من موسكو التي طال أمدها لا يمكن الوفاء بها.

شح المعروض من السلع كالخبز والصابون، وأيضاً ضعف الإمداد الكهربائي. أصبحت نسبة التضخم حوالي 80% في العام. الاحتجاجات والإضرابات أصبحت أزمات يومية، نقص الأغذية أصبح من القضايا الحرجة خاصة في الجنوب. وهذا ربما يكون أول برنامج إنساني عالمي لمساعدة المدنيين من الطرفين في حرب أهلية في دولة ذات سيادة.

لقد أحدثت العملية نقلة من التكتيك في استخدام المجاعة لأغراض عسكرية رغم أن معظم العون الخاص بالجنوب سرق من قبل الجيش الشعبي. لقد أنقذ

(شريان الحياة) حياة مئات الآلاف، لكن البرامج المكثفة لإمدادات الغذاء الخارجية للشمال والجنوب، أيضاً أظهرت مدى الانهيار الإداري في البلاد.

ماذا عن الحليف القديم مصر؟

رفضت القاهرة بغداد تسليم نميري عندما طلبت الحكومة الجديدة ذلك في عام 1986م.

لم يوافق المشير حسني مبارك على تسليم المشير نميري، على الأقل لرجل يجسد حياة المهدية التي تشكل تهديداً لمصر، ثم ضاعف المهدي من التوترات بين السودان ومصر، بترقيته الترابي ليشغل منصب نائب رئيس الوزراء وأسوأ وزير للخارجية للتعامل مع القاهرة.

يكره مبارك الإخوان المسلمين، وكان الترابي الضوء المرشد لهم في الخرطوم. وكانت علاقات الحكومة ضعيفة مع دول الخليج في وقت تخندقت فيه طائفة الختمية المنافس للمهدي بالروابط الدينية. فيما عدا السعودية والعراق، أخفق المهدي مع كل جيرانه، واستعدى تقريباً القوى الداخلية في الشمال.

واهتزت على أوسع نطاق وخسر الحرب في الجنوب، وسجل البعض لم يبق ولا القليل لرجل دخل السلطة بمغزى أنه صانع سلام وملهم الإنقاذ الوطني. وكانت الكارثة جزئياً من صنيعه. ولكن كان له شيطان جاثم على كتفه وهو زوج أخته. إنها خطة الترابي لحصاد الثورة واستخدامها لكنس ما يرى أنه كالتبن (علف الماشية) في الخرطوم.

أشيع في ربيع عام 1989م أن الجيش المصري سيعيد نميري للحكم. وكان رئيس الاستخبارات العسكرية المصرية قد اعترف بأنه في يوم ما سنعود ونحتل ذلك القطر لأن هؤلاء الناس مشكلة غير مؤهلين لحكم أنفسهم.

أصبحت الحالة في غاية السوء، وإن النواب في الجمعية التأسيسية أخذوا علماً بذلك في النهاية. لقد طالبوا رئيس الوزراء بتقديم استقالته. وقبل أن يستقيل يتوجب عليه إنهاء حالة الطوارئ، وتجميد قوانين سبتمبر، والتي سبق له أن وعد بإلغائها حال ترؤسه مجلس الوزراء، ولكنه لم يفعل ذلك. وفي يونيو دعا المهدي إلى

وقف دائم لإطلاق النار في الجنوب، واقترح تعليق العمل بقوانين سبتمبر، على أن يتم المصادقة عليها من قبل الجمعية فيما بعد.

وبالحاجة الملحة للاختراق السياسي، وافق المهدي وبتردد لشهور من قبل، على مؤتمر للسلام مع المتمردين الجنوبيين. وكان من المقرر أن يعقد بنهاية يونيو 1989. ولم يحدث ذلك في بعض التفسيرات أن الجيش والجبهة الإسلامية القومية في تحرك استباقي شجاع منعوا عقد المؤتمر بحسبان ذلك ينطوي على احتمال الاستسلام للجنوب.

التاريخ يعيد نفسه ثانية، في ليلة 30 يونيو 1989م، قام الجيش بقيادة العميد عمر البشير باكتساح دار الألعاب الذي نصبه الصادق المهدي الأخوان المسلمين والجبهة الإسلامية يرفرفون بأجنحتهم في انتظار كيف تلعب آخر دورة عسكرية ضد سيطرة الإسلاميين الحاليين؟ إن ذلك يعتمد على القائد العسكري الجديد الذي قام بقيادة الثورة. ويبدو أنه قد جاء من مكان غير معروف.

صناعة رئيس:

من هو ذلك الرجل الذي انطلق للمسرح القومي والدولي في انقلاب عام 1989م؟ من أين جاء؟ ما الذي حركه؟ ولد عمر حسن أحمد البشير في 1/ 1/ 1944م في حوش بانقا الزراعية المتواضعة، والتي تبعد مائة ميل شمال الخرطوم. وتقع القرية على ضواحي مدينة شندي بالضفة الشرقية للنيل بولاية نهر النيل. كانت شندي السوق الرئيس للبلاد قبل إنشاء الخرطوم، وكانت أيضاً مركزاً لتجارة الرقيق. تقع المدينة على بعد 30 ميلاً للجنوب الغربي لمروي عاصمة مملكة كوش القديمة. ربما تكون المائة هرم أصغر بكثير من رصفائها المصرية وأنه ربما قممها شذبت وتمت صيانتها بعد سرقة الضريح من قبل سارق الأموات الإيطالي في القرن التاسع عشر، وأنه ما زال حتى اليوم يتمتع ببيئة مناخية جوية وفي موقع مقنع.

في عام 1944م حوش بانقا كانت هادئة ومكاناً معزولاً عن التغيير والأفكار الجديدة. والد عمر كان مزارع يوميات صغير، ينتمي عمر البشير إلى مجموعة البديرية الدهمشية، وهي جزء من تجمع قبائل الجعليين التي تسيطر على الجزء الأوسط لشمال السودان. كثير من ساسة المستقبل قد يأتون من هذا التجمع القبلي

الذي يتمركز في مدينة شندي. مولد عمر بدأ فيما بعد أنه حدث منحوس. في الحقيقة في اليوم نفسه ولد أحد ساسة المستقبل من المسلمين: زخر الله خان جمالي ليصبح فيما بعد رئيس الوزراء الثالث عشر لباكستان. في عام 1944م سواء السودان أو باكستان لم تكونا قد أنشئتا دولتين مستقلتين. لربما يكون الأمر أكثر مناسبة بالنسبة للمؤرخين الإسلاميين، بأن الأول من يناير بعد الميلاد عام 630 أن الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، كان قد توجه إلى مكة التي استولى عليها دون إراقة دماء. الولد عُمير كما كان يلقب في ذلك الوقت بـ عمر الصغير، قد استولى على العاصمة السودانية أيضاً دون إراقة دماء بعد 45 يوماً تلت مولده. إن كان يناير من عام 1944م غير مهم في الشؤون المحلية السودانية. انه كان شهراً محورياً في الحرب العالمية خارج قرية عمر البشير. في أوربا كان الجيش الأحمر في طريقه لتحطيم الجيش النازي الذي احتل بولندا واحتل دول البلطيق. كان الأمريكيون يقاتلون بشدة في جنوب إيطاليا. وفي الأول من يناير الجنرال مارك كلارك حل مكان الجنرال الشهير جورج باتن قائداً للجيش السابع.

قد همش باتن لصفعته الشهيرة، وتوبيخه لاثنين من رجاله الذين عانا مما يعرف الآن باضطراب الكرب. على الرغم من ذلك باتون كلف بعملية خداع واحتمال الجلد لتضليل هيتلر، في تحديد اليوم الذي غزت فيه القوات البريطانية والأمريكية شمال فرنسا في يونيو 1944م. كان البريطانيون في ذلك اليوم يخططون لتجارب، ولأول استخدام لاستخدام طائرات الهليكوبتر بأسطول القوات البحرية.

إنه من المنظور الإمبراطوري الواسع أن قوات دفاع السودان، قد أنشئت في عام 1925م، واختارت أعضاء من عائلة البشير أربعة من أخوال رئيس المستقبل، قد حاربوا جنباً إلى جنب مع القوات البريطانية في شمال إفريقيا وحملات أبسنين، بما في ذلك أحدهم الذي بين نفسه في العلمين المتطوعين السودانيين، مبدئين أثر لهم البريطانيون بأن الإيطاليين سيئين وأنهم سيقومون باغتصاب زوجاتهم.

ذهب عمر إلى المدرسة الأولية في المنطقة، لكن توجب عليه أن ينتقل في عام 1953م، عندما أخذ والده حسن كل الأسرة المكونة من أربعة أولاد وأربعة بنات،

إلى قرية جديدة تسمى صراصر حوالي 100 ميل جنوب الخرطوم، للبحث عن العمل في منطقة مزدهرة بصناعة القطن.

لقد أنشأ البريطانيون مشروعاً واسعاً ومنظماً بالري الدائم قبل عقود خلت. على الرغم من لهجة المنطقة الشمالية، استقر حسن بالمنطقة بشكل جيد في القرية التي كان يقطنها حوالي 2,000 نسمة. كانت المنازل مشيدة بالطوب الأخضر. لا يستمتع سكان القرية بخدمات الكهرباء أو المياه. فقط توجد أجهزة "الراديو" تشغل وبصوت عال في الدكاكين. ما زالت بعض المنازل المشيدة بالطوب الأخضر قائمة عندما زرت القرية للحديث لأعمام الرئيس، الذين ما زالوا يعيشون هناك. وأن كان الآن شيدت منازل بالطوب الأحمر والأسمنت الخفيف والحجارة بشكل متواضع مع مراحيض خارجية.

في معاملة غاية في الضيافة والترحيب، استمعت إلى قصص لا تنتهي عن طفولة الرئيس. بعض أقارب الرئيس الكبار ذكروا أنه كان يلهو ويلعب على قدم واحدة، كما كان يفعل المعتدة لونق جون سلفر. ولأنني كنت اجتهد في سبيل الترجمة العربية للعبة الحجلة، كما يلعب الصغار أيضاً لعبة ثيو، وهي لعبة الكرة والبلي. وبالطبع عمر الشاب وصف بأنه مثال للكمال. "مطيع جداً لوالده" ذكر أحد أعمامه بفخر. حسناً أنه سيقول ذلك لكاتب في رفقه رجال الرئيس، أليس كذلك؟

في الختام لقد حصلت على خطأ يسير. عمر وصف بأنه مشاكس وعدائي، وكان نشطاً في تنظيم الأولاد في الحي، لرمي الأولاد في القرية المجاورة بالنبال والعصي. وفي بعض الأمسيات يسبحون في قنوات الري التي شيدها البريطانيون على الرغم من أنهم ما كان يجب أن يفعلوا ذلك. عمر الشاب كان لاعب كرة قدم. وكان يلعب في الدفاع، وذكر أحد أبناء عمه. وهذا ما جعله يذهب إلى الجيش، التورية والتلاعب بالألفاظ يبدو أنها مستخدمة في اللغتين الإنجليزية والعربية. حب كرة القدم، ظل في روح عمر البشير عندما انتقل مؤخراً إلى الخرطوم بحري، كان مشجعاً متعصباً للهلال أحد أندية السودان الناجعة، على الرغم من أنه مؤخراً ظهر مساعداً للفريق القومي في حياته السياسية.

ابن زوجة الرئيس البشير (محمد)، أخبرني بقصة تعليمية عندما زرت المجمع السكني عام 2014م في الخرطوم بحري، الذي يبدو أنه مزرعة رئاسية. قبل سنين عندما كان الرئيس خفيف الحركة وأكمل الفريق القومي ألعابه، ذهب الرئيس للملعب وسدد ضربات جزاء ضد حارس المرمي المحترف، الذي قام بإنقاذ الكرة من الشبكة. وقام الحكم بإعطاء حارس المرمي كرتاً أصفر، وسدد الرئيس ضربة جزاء أخرى، فقفز حارس المرمي للاتجاه الخطأ فاستقرت الكرة داخل الشبكة. فانفجر كل الاستاد بالتصفيق والضحك.

الرئيس سمعته في الغرب بأنه دكتاتور وضد الغرب جداً. وعادة أن مساعديه يشجعونه لأجراء المقابلات باللغة العربية، على الرغم من أن عمر البشير يتحدث الإنجليزية بطريقة جيدة. وأنا كنت مهتماً بطريقته بالجزيرة البريطانية الاستعمارية السابقة. في عدد من المناسبات كان يتحدث بولع عن واحد من المعلمين البريطانيين الثلاثة، المستر كولير اسكتلندي الذي درس مادة الرياضيات في مدرسة البنين، وهي المدرسة الوحيدة في صراصر، على الرغم من كبره الفصول والتي تسع 40 طالباً. إنهم يتلقون صوتاً تعليمياً. وشقيق عمر المتحمس محمد حسن الذي يصغره بعامين، تحدث أيضاً بالحرارة نفسها عن المستر كولير. بالحقيقة ظل حسن يغني، لكن بطريقة غير متناغمة مقطعاً لـ Auld Lang Syne بغرض الترفيه عن الشقيق الآخر صديق عائش هادي في إنجلترا لأكثر من 30 عاماً ممارساً للطب. العديد من أقارب الرئيس والمقربين منه سياسياً، عاشوا ودرسوا وعملوا في المملكة المتحدة. عندما اعتقلت لأول مرة في السودان سنة 1996م بقبل الصدفة بواسطة وزير العدل بنفسه، أول سؤال بدر إلى ذهني ليس لماذا تم اعتقالي، ولكن ما هي كلية أوكسبريدج الأصلية التي درس بها الوزير؟ كنت كثيراً عندما أبدأ من الصغر وبطريقة مظهرية متعجلة، ينتابني الخوف من الغرباء بالمظهر الخارجي، لكن سرعان ما اكتشفت شخصاً صادقاً في الحب للإنجليزية. وأنه كثير التهذيب مع الضيف (أو الصحفي المعتقل). اللغة الإنجليزية الموروث الاستعماري يجرى عميقاً في الحزب الحاكم، وفي أطفالهم الذين يتزاحمون على الدراسة في المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة الأمريكية. والدة الرئيس هدية كانت في عامها 88 عندما قمت بزيارتها بالسكن

الرئاسي. كانت أكثر صراحة حول النفوذ البريطاني. قد ذكرت كيف كان مفتشو المراكز يتحدثون بشكل جاف، وأحياناً مع العمل في مزارع القطن. كانوا يتآمرون على المزارعين. وأضافت أن البريطانيين لم يقدموا أي مساعدات طبية، كنا نستخدم الطرق التقليدية والأعشاب.

عندما كان دون العشرين من عمره، قالت إن طموح ابنها أن يكون طياراً حربياً. لكنني ما كنت أريد منه أن يصبح مقاتلاً. ولم أكن أذوق للنوم طعماً عندما كان يقاتل في الجنوب. وترجيته ألا يعمل بالجنوب. وأضافت "ما كنت أريد له أن يصبح رئيساً. أنا خائفة على حياته. واعترفت أنها تريد من ابنها التقاعد، لقد عمل ما فيه الكفاية للبلاد. لقد اشتكت من العيش تحت الحياة الرسمية والأمنية. إنها مشتاقة للعودة لمنزل الأسرة التقليدية في الخرطوم بحري. إنه قد تعب لكن الناس لا يودون تركه ليتقاعد. إنهم يعتقدون إذا ما ذهب ستحدث فوضى كبيرة. لكن أنا اعتقد أنه قد فعل ما فيه الكفاية.

من الواضح أن هدية تفضل الحديث عن ابنها عندما كان صغير جداً. من الواضح أنه كان وغداً. كان سريعاً – طفلاً من الصعب القبض عليه، وكان يتشاجر مع أخيه الأكبر أحمد. كان أحمد يتميز عليه أو على الأقل يحاول ذلك. لقد أخبرتني أنها كانت تحضر عمر ليتعلم الشعر تقريباً كل يوم. بعد ذلك اقتبست جزءاً من شعرها المفضل، وذكرت أيضاً عندما كان عمر في السادسة أو السابعة من عمره رفض الموافقة على الضرب من أمه. لقد انتزع العصاة التي استخدمتها، وبدلاً من ذلك بدأ يضرب أمه بها. وبغضب استرجعت هدية العصا واستأنفت الضرب، ولم تتوقف إلا بعد أن حالت أمها بينه وبينها، ووبختها بصوت عال لمعاقبتها الصغير عمر. وعادت لفكرتها أنها تريد من ابنها أن يتنحى عن الرئاسة. "بعد ذلك استطيع أن أعود وأعيش في بيت الأسرة في الخرطوم بحري. هنا في السكن الرئاسي نعيش كالغرباء" على الرغم من أنها اعترفت بأن ابنها يزورها تقريباً كل يوم عندما يكون موجوداً في البلاد. هذا هو معدنه. إنه شديد العطف عليّ وعلى كل الأسرة. لا شك أن الحياة العسكرية القاسية والقائد السياسي، له قدر من النعومة وهي أسرته. لقد تزوج من ابنة عمه فاطمة خالد – لكنه مثل نميري لم ينجب أطفالاً، الأشخاص

الذين تربطهم علاقة عامة يميلون إلى نسج ذلك بأفكار مبتذلة حلو أنه متزوجٌ بكل البلاد. "أنا مقتنع بقدري من الله عزَّ وجل"، كما يقول الرئيس لأصدقائه. ولكن الرغبة في الأطفال، ربما تكون دافعاً جزئياً عندما اتخذ الرئيس زوجة ثانية شابة عام 2003م أرملة تدعى وداد بابكر عمر. لديها 4 أطفال ولد وثلاثة بنات. البنت الصغرى آمنة من الواضح أن الرئيس مولع بها. من الواضح أنه يحبها ويدللها، ويخرجها حتى بحضور مناسبات معلم والدتها. وداد هي أرملة من أقرب أصدقاء البشير العسكريين إبراهيم شمس الدين، زميل في انقلاب 1989م، الذي قتل في حادث طائرة أثناء تأدية عمله. زواج البعض من العديد من أرامل العسكريين أصبح موضة قام باختيارها الرئيس. لقد أمضيت بعض الوقت بمفردي مع أبناء الزوجات، على الرغم من أنهم لا يحبذون العزلة بأن يظلوا في الأسرة الأولى. من الواضح أنهم قد أحبوا زوج الأم الذي ينادونه بـ داد من البداية. كثيراً ما يحكي الرئيس ذكرياته عند صديقه للأطفال، وعليه يجدون فهماً كاملاً عن مولد والدهم.

لقد تحدثت إلى وداد زوجة ثانية للرئيس، وهي تخاطب عدداً من المناسبات. فهي مشرقة وجذابة مقابلتنا الرسمية كانت بالعربي، لكنها تتحدث الإنجليزية بشكل جيد عندما نتجاذب أطراف الحديث مع بعضنا بشكل غير رسمي. لا يمكنني أن أساعد، ولكن أسال بشكل واضح السؤال الغربي حول المنافسة مع الزوجة الأولى. وقالت بأمانة: "نعم توجد منافسة وهي مسألة عادية". لقد كشفت أنها وزوجها يتحدثون حول السياسة.

هل يستمع إليك؟

قالت "أحياناً".

ماذا عن عدات العمل؟

"إنه كثيراً ما يعمل لوقت متأخر، لكنه لا يحضر العمل إلى المنزل. إنه يريد العودة إلى المنزل بروح صافية"، وقد أشادت بالرئيس أنه فكاهي – أنه يحكي نكته كل يوم". لقد كنت مهذباً جداً بأن أسأل الزوجة إن كان زوجها يتمكن من أن يحكي نكتة جديدة كل يوم.

لم أقابل زوجة الرئيس الأولى الأكبر. لقد طلبت مقابلة معها، لكن أخبروني أنها متوعكة. أنها تدير رسمياً منظمة طوعية كبيرة كما تفعل وداد. وبالطبع هي منظمة مختلفة. عمر البشير قد ربي أيضاً أطفال أخيه الأكبر أحمد بعدما توفى. وبعد ذلك البنات الثلاثة لأخيه الأصغر محمد حسن. وهو تقريباً صورة طبق الأصل من الرئيس. لو أنه أكثر وجاهة. حسن يخبرني بانتظام. محمد حسن كان يعمل في دولة الإمارات العربية المتحدة، وبناته يدرسن في الخرطوم. لقد أجريت مقابلات أو أمضيت وقتاً مقدراً مع ثلاث من بنات الأخ جذابات جداً، شابات وجميعهن نساء شابات في غاية الحداثة والاستقلال التام. لقد اشتكين من صرامة عمهن، لكن قلن "عمو" – العم عمر محب جداً ومعاون.

لقد سألت واحدة من بنات الأخ عالية التعليم، عما إذا كانت تعلم أن عمها لا يحب أن يترشح مرة أخرى، فأجابت: لا كان عليه أن يخرج (بعد نيفاشا بعد التوقيع على محادثات السلام الناجحة مع الجنوب في يناير 2005م).

بالرجوع إلى الأمور المنزلية قالت بنات الأخ "هو بالحقيقة شخص يصحو باكراً، وأنهن يقمن بطهي وجبة الإفطار له بأنفسهن، وهي عبارة عن عصيدة تدعى فول. وهي تبدو وجبة سودانية خاصة، ولكنها ليست بطعم الفول. إنهن لا يحبذن ضغوط أن يكن العائلة الأولى. ولا فمن يطلب أي معروف في المدرسة والكلية، بدلاً عن ذلك أنهن يشعرن يتوجب عليهن أن يعملن بشكل أحسن لتعويض أي إدعاءات حول المحسوبية.

واعترفت واحدة من بنات الأخ عندما سافرت، تعمدت تجنب استخدام اسم العائلة "البشير" للتصرف كمواطنة عادية. إنه ليس من قول النفاق أنّ كل أعضاء أسرة الرئيس من الشباب بما في ذلك أبناء الزوجة، أبناء وبنات الأشقاء والزوجان إنهم جميعاً يتحدثون بشكل ممتاز، ولو بنبرة إنجليزية أمريكية. جميعهم قد ذهب إلى مدارس خاصة درجة أولى ونالوا تعليماً جامعياً في السودان، والخليج والمملكة المتحدة. هذه النقطة مهمة أنهم يتلقون تعليماً جيداً عادة باللغة الإنجليزية الآن. إنَّ أول شيء قام الثوار الإسلاميون بفعله بعد 1989م كان التعريب وأسلمة المدارس والجامعات. على الرغم من أن الجامعات قد تعددت لكن المستويات قد تدنت. جيل

كامل من السودانيين ذوي التحصيل العالي فقدوا التعليم الجيد، وتأثرت اللغة الإنجليزية بصفتها لغة دولية. اعترف لي شقيق الرئيس محمد حسن أكبر أخطاء الرئيس "التغييرات في النظام التعليمي – كان يجب عليه الاحتفاظ باللغة الإنجليزية".

دون شك إن الرئيس رجل يكرس جهده تجاه أسرته، ويصرف أكبر مؤثر فيه كان والده. والد عمر حسن، على الرغم من أنه أمي قد شجع أولاده على التعليم. مبدئياً لا يستطيع الكتابة. علم نفسه بالفحص والتدقيق والإطلاع المستمر للصحف.

استمر حسن أن يكون مؤثراً ومسيطراً على ابنه عمر حتى وفاته في عام 1986م. لقد حذر ابنه عام 1983م و 1984م بألا يرتبط سياسياً خلال عمله في الجيش. كان شديد القلق من المخاطر، وطلب من ابنه الاستقالة من مهامه في الجيش. إن لم يكن قد مات ربما ما كان لابنه أن يقود انقلاب 1989م. يبدو أن البشير الأب صاحب مهيب. لقد شاهدت فيديو عائلياً طويلاً ظهر له فيه تسجيل في أوائل الثمانينات. وأنه على الرغم من نبرة الشمال باللغة الدارجية، تحدث بطلاقة وقف ومباشرة إلى الكاميرا مطولاً وبصوت قوى.

ومن الواضح أن الابن رئيس المستقبل تعلم الخطابة هبة من والده.

صراصر كانت وما زالت قرية سياسية للغاية. خلال زيارتي لكل من المدرسة والمسجد ومنازل الأسر السكان المحليين وأسرة البشير الممتدة، كانوا منهمكين في حوار ساخن حول الأوضاع الحالية. وفي السودان غالباً أن أي شخص هاوٍ سياسي.

لقد تذكرت حديثاً مؤخراً مع ضابط استخبارات كبير في زقاق ضيق ومتسخ في الخرطوم. امرأة كبيرة في السن ترتدي ملابس رثة وتقوم ببيع الشاي على منضدة صغيرة. "يوجد عشرون مليون سياسي في هذا البلد. انظر لتلك السيدة هناك" قال الضابط مشيراً إليها. إن لها آراء سياسية قوية، وأنها تشاركهم الحوار". اعتقد أن ذلك حقيقة، وأنهم يتحاورون في حرية تامة في الطرقات أو المقاهي، لكنهم أقل حرية بكثير في الصحف.

انتقلت أسرة عمر البشير إلى الخرطوم بحري بمنزل صغير مطلي باللون البمبي مقابل لمصلحة الأمراض العقلية. وفي ذلك المنزل، رتبت لمقابلة بعض زملاء

الدراسة في المرحلة الثانوية للقائد وعدد قليل من أساتذته، وهم الآن قد طعنوا في السن ولكنهم واعون، لقد درس في مدرسة حكومية في الخرطوم بحري.

لقد غمرت بغلام رصين ومهذب:

إنه كان ولداً هادئاً ومنظماً جداً.

متديناً جداً أو ربما أقول تقليدياً.

ودائماً يعرف أنه سيكون حاجة.

لو أردت الأدغال عليك باختيار عمر.

وكان متميزاً خاصة في الرياضيات والإنجليزي.

لقد استمريت، خاصة مع المعلم الذي يتحدث الإنجليزي بشكل ممتاز، وعاش في بلدتي كاردف. لقد خاب ظنه أن عمر لم يذهب إلى الجامعة. هناك شيء ربما يدور في ذهن الرئيس عندما يتعامل فيما بعد مع الأشخاص الذين هم أفضل تعليماً في حزبه والسياسيين الأجانب اللبقين. أحد زملاء عمر في الفصل، اعترف أنهم عندما كانوا في سن الرابعة عشرة، يهربون أحياناً من المدرسة ويذهبون إلى السينما. عليه شكراً للشاب عمر، إنه لم يكن ولياً تقياً. ومن المثير أكثر للاهتمام، قد اكتشفت من أستاذه أنه حولي سن 15 – 16 فصل عمر من تنظيم الأخوان المسلمين بسبب التدخين. هذه الحقيقة لم تضمن في سيرته الذاتية الرسمية. ولكن كان لعمر أقارب في الحركة، وسمح له فيما بعد بالرجوع.

لم يكن عمر البشير كسولاً. كان يمارس العديد من أنواع الرياضة مثل: كرة الطائرة، ولعبة الأسكواش، بالإضافة إلى كرة القدم. على الرغم من أنه كان مهتماً بالرياضة لم يحتل مكاناً رياضياً أو يكتسب بنية. هو نسبياً قصير القامة حوالي خمسة أقدام وتسع بوصة. كان يعمل اعتماداً على سلامة صحته، وكان في العادة قليل المال، ويعمل في عطلات المدرسة لمساعدة والده في الحقل، وعلى آلة في الجراج. الضغوط المالية كانت جزءاً من دوافعه للانضمام للجيش خلافاً للجامعة. عندما كان عمر شاباً تمنى أن يصبح طبيباً (وهي مهنة أخذ بها أحد أشقائه). خياره الثاني أن يكون عسكرياً والخيار الثالث أن يصير معلماً.

لقد أكمل شهادة كمبردج والتحق بالقوات المسلحة. مبدئياً تمنى أن يتدرب طياراً. لقد تذكر خدمة عمه في القوات الملكية. وتمنى عمر الشاب أن يتدرب في بريطانيا. "كنت سأذهب للدراسة في المملكة المتحدة، لكن أزمة إعلان الاستغلال من طرف واحد منعتني من الذهاب، قال لي الرئيس ذلك عندما استغرقنا في ذكريات خيارات طفولته.

وكان يشير إلى إعلان الاستقلال غير القانوني لروديسيا في نوفمبر 1965م. رد فعل بريطانيا الفاتر تجاه المتمردين البيض، أحدث غضباً في العديد من الدول الإفريقية. لقد درس عامين في أكاديمية السودان العسكرية، وقلد رتبه الضابط في ديسمبر عام 1966م. الارتباط الملكي رسخ بواسطة مدربين في الجيش البريطاني (استبدلوا فيما بعد بالروس). الطلاب الحربيون في الأكاديمية العسكرية يقسمون إلى ثلاثة بلتونات، كل بلتون يشمل 100 طالب حربي. كان عمر البشير في البلتون الثالث. لقد تحدثت إلى بعض زملاء الرئيس الحربيين والذين اعترفوا بأن بريطانيا خلفت مبادئ جيدة. الطالب حربي البشير قد استجاب بشكل جيد لنمط نظام الانضباط البريطاني، وذلك وفقاً لزملائه الحربيين. بعد تقلده الرتبة أرسل إلى دارفور، وهناك أمضى عامين كاملين، بالنسبة لملازم شاب كانت محطة شدة: البداية كانت أبكرنكا غرب نيالا ضابطاً مبتدئاً مسؤولاً عن 32 جندياً. كانت مهامه في الصحراء ومنطقة السافنا احتواء النزاعات القبلية التقليدية.

زميل حربي في نفس الجماعة فيما بعد أصبح لواء قال لي "لديه جاذبية القائد من البداية، وأنه متخذ قرار على الرغم من أنه رجل بسيط ومن أسرة بسيطة. لم أشاهده على الإطلاق يتعاطى الخمر أو يدخن. إنه رجل شديد التدين لكنه صاحب نكات. بشكل خاص اللواء أخبرني بصوت خافض "أن صديقه القديم كان عسكرياً عظيماً لكن الحزب الحاكم سمم عقله".

عدد من كبار الضباط بعضهم تقاعد، علقوا عن عمر البشير عن صحته الجسدية الخاصة، القيادة في جبهة القتال وشعبيته بين رجاله. أحد اللواءات قال "إنه أظهر روحاً طيبة قائداً عسكرياً". بينما أخبرني ضابط كبير بالتحديد "الرئيس ما زال يقف عندما يقابل رؤساءه العسكريين القدامي. هو عسكري حقيقي. ثانية – بشكل

خاص – بعض رفقاء سلاح ما زالوا مخلصين له. ويلومون الحزب الحاكم لكونه استولى عليه. بعض من أكثر العسكريين وقادة الاستخبارات إخلاصاً له، كانوا قد أيدوا انقلاب القصر الفاشل في 2012 ضد الحزب، ولكن ليس ضد الرئيس، كما قال بعضهم. على الرغم من ذلك ظل الجيش جزءاً رئيسياً لدائرته الطبيعية خلال مسار حياته العملية الطويلة جزئياً، بسبب علاقاته الشخصية المهنية. إنه ينظر إليه قائداً طبيعياً الذي يعمل بالتشاور بعناية مع زملائه.

إبراهيم أحمد قندو، من كبار أساتذة حزب المؤتمر الوطني، وصفه بطريقة أفضل بلغة إنجليزية خالية من الأخطاء، أنه لا أحد يدفع الرئيس، لكنه رجل يعمل وفق الشورى.

بعد محطة دارفور الملازم البشير دخل تدريباً مظلياً مكثفاً لمدة 6 شهور للحصول على "بيرى الأحمر". ثم درس بالأكاديمية العسكرية المصرية بالقاهرة، حيث تخصص في تدريب مظلي إضافي. لقد درس على أيدي مدربين روس وأصبح ضابطاً مظلياً كامل العضوية في عام 1969م. خلال حياته العملية أكمل 16 قفزة ليس من بينها قفزات في مجال العمليات. لقد تمت ترقيته لرتبة الرائد في عام 1971م. في عام 1973م عائد إلى مصر "لقد تم إرسالنا كعمل تضامني أثناء حرب 1973م. وكنا فخورين بالذهاب" كما قال الرئيس، كنا جزءاً من مجموعة القوات السودانية المصرية المشتركة الخاصة، والتي تمركزت على بعد 40 ميلاً من خط الجبهة الإسرائيلية كدرع التشكيلات المتقدمة للجنرال إيريل شيرون، واحتمال الدفع بها تجاه القاهرة. لدى عمر البشير خبرة في مجال القذف المتقطع، لكنه لم يكن جزءاً من قوات وحدات الأمن التي عبرت قناة السويس، مستخدمة أسلوب أضرب وأهرب وزرع الألغام لاستهداف القوات الإسرائيلية. أظهر الضابط الشاب مقدرة للتواصل مع القوات الأجنبية، لأنه قد تم إرساله عام 1975م للعمل ملحقاً عسكرياً في دولة الإمارات العربية المتحدة. لم تكن كلها دبلوماسية. لقد أدى دورة عمل في عام 1976م مع قوات حفظ السلام الخاصة بالجامعات العربية في لبنان. لقد تمت ترقيته إلى رتبة الرائد أثناء عمله هناك. وأنه أيضاً قد أمضى وقتاً بمدرسة المشاة في أبو ظبي. من 1979 إلى 1981م. كان قائد حامية في الخرطوم. في عام 1980م تمت

ترقيته لرتبة مقدم. بعدها رقي ليصبح قائداً لسلاح المظلات، وهي وظيفة ظل بها حتى عام 1987م. في عام 1981م ترقي لرتبة عقيد. وخلال فترة عمله حصل في عام 1981م على درجة الماجستير في العلوم العسكرية من كلية القادة والأركان السودانية. في عام 1983م حصل على درجة ماجستير أخرى في العلوم العسكرية في ماليزيا. كتب بحثه باللغة الإنجليزية حول مناهضة التمرد. في عام 2011م حاز على درجة ماجستير أخرى بالدراسة عن طريق الانتساب في جامعة الجزيرة بمدينة ود مدني.

اكتسب خبرة قتالية في الجنوب ببلاده. وخلال إرساله داخل البلاد، أمضى ثلاث سنوات كاملة يعمل في عمليات مناهضة التمرد ضد الجيش الشعبي لتحرير السودان. بعض العمليات قام بها من دوره قائداً لحامية في ميوم، التي تقع في ولاية الوحدة الفنية بالبرترول في الجنوب. خلال عمله هناك أصبح خبيراً للعمل مع مليشيات النوير المؤيدة للخرطوم، خاصة للجيش الذي كون حول المنطقة بواسطة فاولينو متيب. مشير المستقبل وصف الأوضاع بأنها قاسية جداً خاصة في موسم الأمطار. على الرغم من أنه اعترف بأن قيادة لواء في الجيش يُعَدُّ قمة مهنية، كما قال "أثناء لا وجود لأوقات سعيدة".

الناس في الجنوب كانوا يعانون، لكن نحن أيضاً نعاني من الأوضاع الصعبة جداً، عانينا من نقص الغذاء والمعدات والماكينات. وكان الجيش الشعبي يهاجم كثيراً عندما نخلد إلى النوم بالليل. عادة البشير يقود من الجبهة سيراً على الأقدام دوريات لمدة 4 أو خمسة أيام.

لقد سألت الرئيس عما إذا كان قد جرح في العمليات، لقد استدعيت كثيراً ولكن لم انجرح. معظم الرؤساء والعسكريين الذين لهم خبرات قتالية كثيرة لا يهونون من ماضيهم. يبدو البشير أنه متواضع بصدق بالنسبة لإنجازاته المهنية. إنه يفصح عنها مباشرة".

عدد من منتقديه، بما في ذلك المبعوثون الأمريكيون يعتقدون أنه على الرغم أن سياسي الخرطوم يشتهرون بالمراوغة، غير أن الرئيس دائماً يلعب بمضرب مباشرة، مماثلاً للعبة الكريكت التي تلعب في الهواء الطلق.

لقد تحدثت لعدد من كبار الصحفيين في الخرطوم، الذين يعرفون الرئيس جيداً. قال أحدهم إنه سافر كثيراً مع البشير خارج البلاد. لا فخامة وظروف مختلفة – إنك تحس أنك تسافر مع شخص عادي تشاركه في تناول الوجبات. وعلق آخر عن أن كيف أن الرئيس يزور منازل أشخاص عاديين، ويشارك في الأعراس، ويتم ذلك دائماً بدون حراسة.

لو سافر أحد الصحفيين كثيراً مع الرئيس، وصادف أن ذهب لمناسبة الزواج نفسها، سيكون بالتأكيد وكأنه واحد من أهل الدار. لقد تحدثت إلى كاتب مستأجر كبير الذي تم إدخاله السجون الحكومية عدة مرات. وسألت الكاتب عن إدعاءات الفساد في أسرة البشير. لقد قال "إنه متأكد أن البشير شخصياً ليس بفاسد". لكني ربما يكون بعض الناس الحوليه فاسدين.

لماذا لا يمنعهم؟ "إن محاربة الفساد مثل محاربة الأخطبوط" وقال الصحفي المستقل. "لكن عدد من السياسيين قد تمت محاكمتهم، اثنان منهم من أقارب الرئيس، وسجنوا لارتداد شيك مصرفي".

لقد ترك لي صحفي معارض للحكومة فكرة في الختام، وأنا أصافح للمغادرة بأن قال "من دون البشير ستكون هناك ثلاث أو أربع دول لا دولتين".

لقد طور عمر البشير تاريخاً عسكرياً مثيراً للإعجاب، ولكن كيف أصبح عسكرياً سياسياً؟

من أيام المدرسة كان مشاركاً في الحركة الإسلامية. إن لعمله المؤقت مع الجيش المصري، جعله يتأثر بقدر من الروح الناصرية، التي كانت تسود في كثير من الجيوش العربية. ولكن فقط ولحدٍ ما بالنسبة إلى حالة البشير بسبب الميول الإسلامي ذلك، قد منع الحداثة والنهج العلماني للثورات العسكرية في الدول المجاورة. بعد عام 1977م وتسوية نظام نميري لخلافاته مع الأخوان المسلمين، بدأت الحركة الإسلامية سياسة الصحوة المتصلة بالتسلل للقوات المسلحة. على الرغم من لفت انتباه مخابرات النميري، استطاع البشير أن يعمل بهدوء لتأمين نفوذ الحركة الإسلامية داخل الجيش. لقد ضاعت التقاليد البريطانية للحفاظ على جيش غير سياسي في السودان. كما اعترف لي عمر البشير "باشتراك الجيش في

السياسة"، توجد العديد من الحركات السياسية داخل الجيش – مثل البعثيين والشيوعيين والإسلاميين... تذكر أن الشيوعيين في الجيش حاولوا تدبير انقلاب ضد نميري في عام 1971م.

بعد إسقاط نميري في عام 1985م، سرت إشاعة أن البشير مشترك في محاولة انقلابية لحمل الجبهة الإسلامية القومية (التي يتزعمها الداعية الإسلامي صاحب الكاريزمية الضليع حسن الترابي) للسلطة.

ولحجبه من الأضواء في الخرطوم وآمن من الاهتمام المباشر للبوليس السري كبار الجنرالات المتعاطفة، أرسلوا البشير للمهام القتالية النشطة في الجنوب. لقد أدى أداء جيد ورقي إلى رتبة العميد في عام 1988م. لقد ظل نشطاً في أداء واجبه حتى قبل انقلاب يونيو 1989م بقليل. الحركة الإسلامية ممثل قائد لجناحهم العسكري. البشير أحد المختارين، لكن مبدئياً العسكري المختار للأعلى جزئياً بسبب الفرصة بعض الانقلابيين قد أزيحوا.

البشير تم اختياره، لكن لم يكن العسكري الأعلى المختار. كان ذلك جزئياً بسبب الفرصة، وأن بعض الانقلابيين قد تم إبعادهم. واحد أرسل إلى مصر، وآخر أرسل إلى محطة معزولة في الجنوب. كما أسر لي البشير "نحن قد وضعنا فرصة للنجاح بنسبة 50%. في الأصل حوالي 300 ضابط اشتركوا، لكن الذين تحركوا كثيرون. بعضهم انقسموا حول التوقيت. ثم خفض المشتركين الرئيسيين إلى 30 ضابطاً يتراوحون بين الملازم إلى اللواء. البشير قام بالترتيب للأمر بعناية شديدة. بوصفه قائداً لوحدات أسلحة متحركة كان في موقع رئيسي. "أنا كنت القائد، كانت واحدة من أهم نقاط حياتي المهنية. كان لدينا سلاح مساند قوى، لكن ثبت ليس ضروري وقمنا بالمهمة من الداخل وكانت ناجحة من دون قتال أو إراقة دماء".

بعد الانقلاب أصبح البشير وزير الدفاع. في عام 1993م رئيساً للسودان ومؤخراً في رئاسته تمت ترقيته إلى مشير. الأمر ليس بالسيئ لصبي مزرعة. ولكن بدقة هو رجل جيش. كيف له أن حول ولاءه للجيش لمطلوبات سياسية حزبية؟ لقد أثبت جدارة قائداً عسكرياً، وأبدي مهارات سياسية تحت السطح، لكن كيف له أن يوازن كلاعب قومي ودولي على المسرح السياسي؟.

الاحتكار الثنائي:

في ليلة الثلاثين من يونيو 1989م، العميد عمر البشير قاد انقلاب مع مجموعة رئيسة صغيرة مكونة فقط من 30 ضابطاً. "لقد مل الناس الصادق المهدي". أخبرني البشير على نحو مباشرة "لقد قمنا به من الداخل". إن أيامه في وحدات المظلات حول الخرطوم تعنى أنهم يتبعون أوامره، وبكفاءة استولوا على المواقع الإستراتيجية في العاصمة المثلثة. كان سريعاً وتم من دون إراقة دماء مثل الانقلاب العسكري لنميري عام 1969م. وبعد قليل ظن كثير من السودانيين أنه مثل أي انقلاب آخر. لم يكن كذلك. البشير ظل في الحكم أكثر من 25 عاماً فيما بعد. الزخارف العسكرية هي نفسها كون الضباط مجلس قيادة الثورة التي عكست التقاليد الناصرية. لكن هذا انقلاب علماني بلا معنى. لقد تم التخطيط له مع حزب الجبهة القومية الإسلامية. رئيس بالجمعية التأسيسية علي عثمان محمد طه أمضى شهوراً في تخطيط مشترك مع البشير لتحديد المقاصد التي يجب أن يحققها الانقلاب. كان خطاب البشير، في الإذاعة، وفيما بعد في التلفزيون يتحدث عن إخفاق الحكومة الديمقراطية للصادق المهدي. توقع عدد قليل من السودانيين ثورة إسلامية لإحلال محل هذه الديمقراطية المعيبة لحد بعيد. ثورة من الطراز الشخص كثير الرؤى حسن الترابي الذي خطط لهذا اليوم لعقود. عمل البشير خلف الكواليس لاستقرار الجيش، ومحاولة التركيز على الدحر العسكري للحكومة السابقة. وسرعان ما خطف الترابي الأضواء بطريقة غير رسمية داخلياً وخارجياً خلال سفرياته المتكررة.

من ناحيته قلل القائد العسكري للانقلاب من الظهور العام. هذه ليست بنفوذ لقيادة ثورة قائمة على النموذج الناصري.

رغم أن العمل السياسي السري للبشير داخل الجيش، أيقظ اهتمام أجهزة أمن الدولة والاستخبارات العسكرية خاصة تحت قيادة النميري المجنون بالشك فإن القائد الأعلى الجديد للجيش لم يكن معروفاً عند عامة الجمهور.

في أول مخاطبة إذاعية له مباشرة عقب الانقلاب موجهة للأمة، كانت والدة البشير مسافرة من مدني إلى الخرطوم، على متن بص عام توقف أمام مظاهرة اندلعت على الطريق بسبب الانقلاب. وفي دهشة عندما تعرفت على اسم القائد

الجديد أخبرت بعض من حولها أنّ الذي قام بالانقلاب هو ابنها. لقد صدقها قليل من الناس في ذلك الوقت. ما عدا أن واحداً من الأخوة أبلغ بساعات قليلة قبل العملية، أن البشير لا يود المخاطرة بسلامة أسرته وإفشاء السر لهم في حال ما ذهبت كل الأمور في الطريق الخطأ لقد حسب حساب أن فرصته في النجاح 50 – 50 رغم التخطيط لسنوات.

لقد تم سجن القادة السياسيين الشماليين، بما في ذلك الصادق المهدي، وكنس المعارضين المحتملين في الجيش بالتحفظ على 100 ضابط في سجن كوبر في الخرطوم. على الفور تم تطهير وسط العسكريين عقب سريان إشاعة بانقلاب مضاد. هذا لحد ما – ما كان واضحاً.

حدث مكون غير عادي للانقلاب، أرسل البشير الأب الروحي له إلى كوبر. كذلك أعطي الترابي الوقت لحزم حقيبة مناسبة تحتوى على الأقل على الكتب المفضلة للإمام. لقد منح زنزانة أمنية مريحة جداً، بينما ذكر البشير أن القادة السياسيين الآخرين وجدوا معاملة جيدة أيضاً. وأنه قد أصر "أن ذلك هو الأسلوب السوداني". ومن الظاهر أن المجلس العسكري أراد إظهار حيادهم تجاه كل القادة السياسيين. ربما مصممي الانقلاب أرادوا منه أن يكون انقلاباً عسكرياً وطنياً عادياً لإنقاذ البلاد من السياسيين غير الأكفاء. ويجوز أنهم يريدون تهريب ثورة إسلامية إلى الداخل، من دون أن يثيروا حفيظة المصريين أو الغرب.. المولود بالفطرة معلماً الترابي أشهر القلائل، في حبس مريح بحاضرة رفقائه السجناء حول الدولة الإسلامية الجديدة التي سيعمل على إنشائها قريباً. هذا ليس خيالاً من عنده. عندما أطلق صراحه، كل القادة العسكريين بقيادة البشير أدوا قسم بيعة الولاء إليه، وهو سنة مارسها سيدنا الرسول صل الله عليه وسلم بنفسه. في ذلك الوقت قال البشير إنه فخور باتباع توجيهات الترابي دون تردد. ليس فقط الرئيس العسكري الجديد ورفاق دربه الضباط، لكن قسم كامل من جيل المثقفين على استعداد لتوقير السجين المؤقت بحسبانه مهندساً وإمام الثورة الإسلامية.

فترة الحبس القصيرة، كانت حدثت بشكل تنبوئي غريب – بأن الترابي سيمضي وقتاً طويلاً في السجن أو الاعتقال المنزلي في السنوات الخمس والعشرين

القادمة وليس بإرادته. الترابي صنع الثورة التي استولي عليها فيما بعد شريك الانقلاب البشير. بعد ذلك أمضى القائد الروحي سنين لضعضعة الرئيس العسكري عمل مع العديد من أعداء النظام في الخارج وفي الجنوب، في كثير من الدول الأخرى كان يمكن إعدامه بتهمة الخيانة، لكن لحدٍ ما السحر الذي أفرغه الترابي على جيل من الطلاب والضباط العسكريين والسياسيين، ما زال قوياً بهم، على الرغم مما لحق بهم من خيبة معه. خلال سنتين سألت مئات من مساعدي الترابي السابقين، بعضهم في السلاطة بالسودان، وآخرون في المنفي بالغرب عن هذه المفارقة. قليل منهم جداً يوبخه مباشرة لا بسبب للأفول للاحترام الدائم له. معظمهم يقود من حيث الجوهر: إنه عظيم كإمام لكنه سيئ كسياسي.

إذا كان التاريخ السوداني مخزن إذ شكسبير ماكيث فيه تشابه جزئي. من 1990 إلى 1926 كان الطراز الترابي، وأنه هو الذي قاد الثورة من 1996، من انقلاب إلى انقلاب حتى 1999 خبأ نجمه، بعد ذلك عندما كان في السجن أو الإقامة الجبرية، الترابي كان يرفرف مثل شبح بانكو فوق الدولة السودانية. قوته كانت شيئاً مضخماً. وأخيراً أصبح متوافقاً مع النظام، ولكن معظم تأثيره في الحقيقة صعوبته وحقده مثال لذلك توسطه مع أعداء الخرطوم خاصة في دارفور والجيش الشعبي لتحرير السودان. إنه من المناسب لرجل له التزام عقائدي عالمي أن يظهر في كل مكان، يختبئ خلف الأفق إن لم يكن خلف الستارة، عندما خرجت اتفاقيات السلام عن مسارها فجأة. قصة الحياة السياسية لشمال السودان مؤخراً لا يمكن فهمها دون الإشارة إلى الاحتكار الثنائي المبدئي للسلطة؛ العمل الثنائي لحسن وعمر. وفي البداية واضح من الذي كان يشد السلاسل.

لكن بعد عام أو عامين، انتقلت السلطة إلى ثنائية أكثر توازناً. ثم في سنين قليلة استعاد العسكريون المقاليد، وأصبح البشير قائداً لا ينازع. كيف حدث ذلك وكيف أثر في الحرب الأهلية التي سيطرت في العقد الأول من رئاسة البشير. خلال أسابيع من ثورة يونيو، أصبح واضحاً أن ذلك لم يكن انقلاباً لضباط الرتب الوسطى غاضبين على استراتيجية الحرب المتخبطة للصادق المهدي. إنهم نواة لضباط استوطن فيهم برنامج إسلامي ابتدعه الترابي.

لقد تم حظر بقايا العلمانية المؤثرة، خاصة الاتحادات والأحزاب السياسية الأخرى. تقريباً كل كبار الضباط في الجيش والشرطة غير المتعاطفين مع الإسلاميين قد طردوا. معظم الصحف قد أغلقت، وتم إشراف لصيق على الإذاعة والتلفزيون الذين تمتلكهما الدولة. الأجهزة الإعلامية التي تم الإبقاء عليها، ذكرت بوضوح أن حكومة مجلس قيادة الثورة ملتزم بالإسلام التقليدي والقوانين الإسلامية أيضاً الزى الإسلامي للرجال وعلى وجه الخصوص النساء.

فنياً يُعَدُّ مجلس قيادة الثورة هو أعلى سلطة في الدولة. خلف هذا المظهر الزائف تقع الشورى ويسمى الإنذار "مجلس المدافعين عن الثورة" الذي يجتمع سراً بعد حظر التجول. يتكون من بعض الضباط المتحمسين، لكنه يسيطر عليه المدنيون من الجبهة الإسلامية القومية. يلقب بالمجلس الأربعيني، ويترأسه رئيس الجبهة الإسلامية القومية النشط علي عثمان محمد طه. أحد المراقبين المقربين "أسلوبه المتواضع" ملامحه الطفولية وتصرفاته الهادئة، شجعت كثيراً من الناس على إهمال الجانب الأكثر صرامة فيه. طه كان في مدرسة الخرطوم بحري نفسها التي كان فيها البشير، لكن كان أقدم منه بسنتين. وكان كذلك المساعد الشخصي للترابي، وكان لوقت طويل مؤمناً حقيقياً به. وبعد بداية خيبة الأمل، لمع نجم طه جنباً إلى جنب مع البشير، وأصبح نائباً للرئيس فيما بعد، والرئيس المدبر لاتفاق السلام النهائي مع الجنوب في عام 2005م.

في يناير 2014م نحىَّ طه جانباً من السلطة الحقيقية وذهب في شبه تقاعد. لقد شعر أنه يستطيع الحديث بصراحة عندما زرته في منزله الحكومي الفخم بالخرطوم. سألته عن متى بدأ الانفصال بين البشير والترابي. التاريخ يقول إن ذلك كان في عام 1996م، أو حتى مؤخراً عام 1999م، قال طه هو يحدق للوراء. المفاصلة بدأت قبل عام 1999، في أوائل 1991م أو 1992م. أراد الترابي أن يكون صانع الملوك. لقد وافقنا على ذلك. المشكلة كانت في الطريقة التي عمل بها... المسألة كلها كانت حول السلطة السياسية، وليست حول الأيديولوجية الدينية. طه صاحب التفكير الواقعي، كان واضحاً عاطفياً عندما وصف الأحداث المتعلقة

بالعقدين الماضيين. وهو ما زال في صراع مع الترابي. على أي حال إنه قال: الترابي فعل الكثير للإضرار بالرئيس والشعب والبلاد نفسها.

كان ذلك في المستقبل. في بداية الثورة كان ينظر الإسلاميون للترابي أنه منقذ للبلاد. لكن الحكومة الجديدة كان تأييدها الشعبي ضعيفاً في المناطق الريفية، أو المدن في الأوساط المثقفة الأكثر علمانية، والطبقة الوسطى التجارية. لم يكن مستغرباً أن يكون الأمن الداخلي أولوية بالنسبة لمجلس قيادة الثورة. النظام الاستخباراتي تعاظم تحت مبارك المهدي؛ ابن عم رئيس الوزراء السابق الصادق المهدي.

البناء الرسمي الوظيفي فيما بعد، أطلق عليه جهاز الأمن والمخابرات الوطني. تمت مراجعته على طول الخطوط التقليدية لقد تم تقسيمه إلى فرع داخلي مشابه لجهاز الأمن والمخابرات العسكرية، القسم (5) في المملكة المتحدة. فرع خارجي على الأقل لا يتجسس على السودانيين في المنفى في الغرب والشرق الأوسط. وخط التوازي هنا جهاز الاستخبارات السري المعروف بـ M16 وهو جهاز المخابرات الخارجية بالمملكة المتحدة. وكونت وحدة ثالثة للتعامل مع الاستخبارات العسكرية، التي ليس فقط من أجل جمع البيانات العسكرية المفيدة داخلياً وخارجياً (للعاملين بالاستخبارات والدفاع في المملكة المتحدة)، لكن أيضاً لرصد الخشخشة الدائمة داخل الجيش. جنباً إلى جنب للهيكل الوظيفي للعمل الثابت، استمدت نظاماً إسلامياً غير رسمي، شمل جيشاً مؤقتاً يتكون من الطلاب والإسلاميين الشباب يدعى أمن الجبهة. ثورة عام 1989م كان ذلك مصطلحاً شائعاً يستخدم عندما يهمس السودانيون حول الأمور الأمنية، مع أن الخبراء الأجانب يستخدمون المصطلح العربي العام مخابرات، أو جهاز الأمن والمخابرات الوطني. يتعاون أيضاً أمن الجبهة بشكل لصيق مع أعضاء كثيرين من قوات الدفاع الشعبي.

كل خطط المنفيين المحيطين ومقاتلي حرب العصابات، جميعهم كانوا يراهنون على فرضية وجود النظام الثوري مؤقتاً في الخرطوم. وبالقدر نفسه تقريباً، كل الخبراء الغربيين المعنيين بشأن السودان، تكهنوا بانتظام ولعقود بقرب سقوط حكومة البشير. خلال ذلك قام مجلس قيادة الثورة في الخرطوم ومعه الجبهة

الإسلامية، بالإسراع في السيطرة على الجيش والجهاز التنفيذي وكذلك الجهاز القضائي، وهم يرددون إنها ثورة شاملة كما فعل موسليني وقال "الكل داخل الدولة، لا شيء خارج الدولة ولا شيء ضد الدولة".

الترابي هو أيضاً يريد أن يخلق سلطة دينية حيث يحدث تنوير في اجتماع العلماء الإسلامي وفي الشورى والوصول بالإجماع لتفسير ديني جيد.

إن قوانين سبتمبر القاسية التي بدأها نميري، استبدلت بنسخة أخرى قاسية من الشريعة في أنحاء البلاد، لتحاشي أي أمل في الاتفاق في الجنوب.

والمدافعون من الجبهة الإسلامية القومية قالوا: إن عدم تضمين قطع الرأس على سبيل المثال، يؤكد أن القانون الجديد أقل قسوة من نسخة نميري. وقالت الخرطوم إن السودان أصبح أول دولة دينية سنية. يقول الغرب خاصة الأمريكيين: إن السودان نسخة من إيران. إنه "شيء قطيع". المدافعون أوضحوا أن إيران لا يمكن أن تكون نموذجاً على الإطلاق. مثال لذلك أنهم لسنين، ليس لهم نظام حكم مباشر بواسطة الفقيه آيات الله كما في الأسلوب الشيعي، وأصروا على أنهم يطبقون نوعاً من الديمقراطية الإسلامية.

لكن لو لم تكن إيران نموذجاً دينياً، الخرطوم سعت لطلب المشوه الأمنية من أصدقائها الجدد في طهران. في ديسمبر 1991م، الرئيس الإيراني على رفسنجاني زار السودان لأربعة أيام ومعه 150 مستشاراً معظمهم خبراء في الجيش والأمن. وقاد ذلك إلى أن حسن أزادا رئيس (بزدران) الحرس الثوري الإيراني في لبنان، قد منح إقامة دائمة في الخرطوم. وتوافد فيما بعد المختصون في مجال المدفعية والإمدادات التابعين لـ (بزدران). الارتباط الإيراني مبدئياً يركز على مساعدة قوات الدفاع الشعبي (لمزيد من التفاصيل أنظر الملحق). الدفاع الشعبي الغرض منه الدفع بكل المجتمع وتحميل الجيش فوق طاقته. لقد تم التخطيط لاستيعاب 100,000 متطوع. والصفوة من هذه القوات أوكل إليهم دور القتال في الجنوب، ودور مناهضة الانقلابات في المدن الثلاث. وأقيمت حملات في المساجد وفي الإعلام لتأكيد وجوب الجهاد والفخر بالاستشهاد. بعض الشباب من الطبقة الوسطى خاصة الطلاب غير مقتنعين بشكل كامل بمزايا مبادلة درجاتهم لأجل الدخول المبكر في الجنة. لكن يوجد

متطوعون متحمسون إلى ذلك. ولكن خاصة في الدفاع الشعبي، كثيراً ما تتم مطالبات للتوصية للعمل أو الاستمرار في الدراسة، أو حتى رحلات إلى ما وراء البحار (شهادة خلو طرف من الخدمة الوطنية في الجيش أيضاً مطلوبة للعمل في الدولة بما في ذلك الأطباء). وآخرون مجبرون على الدخول في قوات الدفاع الشعبي. تتكون وحدات الدفاع الشعبي من متطوعين جادين للقتال. وأثبتوا أداء جيداً، على الرغم من أنَّ التدريب المبدئي كان فقط ثلاثة أشهر. بين الفينة والفينة يوحي النفوذ الإيراني للقيام بموجة هجمات عقيمة ضد الجيش الشعبي لتحرير السودان، وآلياتهم المدفعية في أوضاع داخل الخنادق. وكثيراً ما يعارض الجيش القتال جنباً إلى جنب مع متطوعي الدفاع الشعبي، لعدم خبراتهم القتالية، وبسبب تحويل أموال كثيرة لأغراض عقائدية، أكثر من كونها لمهام عسكرية. يعمل الدفاع الشعبي بطريقة أفضل في الريف خاصة في غرب السودان. السكان كثيراً يكونون ملمين باستخدام الأسلحة الصغيرة. أحياناً تندمج قوات الدفاع الشعبي في المليشيات القبلية، إلا أن ذلك قد أدى إلى نتائج خطيرة في دارفور. ولكن حتى بين المؤمنين بالفكرة في المدن الثلاث، فإن الطريقة القسرية. في الاختيار لقوات الدفاع الشعبي، برهنت على عدم شعبيتها. بعد أفول نجم الترابي، أصبح ينظر إلى قوات الدفاع الشعبي بأنها عمل سياسي، وليست بمسعى ديني أو عسكري.

غير أن النفوذ الإيراني وأسلوب الاختيار لقوات الدفاع الشعبي، قد أسهم في تنامي الطبيعة الإسلامية للنظام. لقد تعززت فكرة أن الجنوبيين والمسيحيين مواطنون من الدرجة الثانية. وكذلك النساء صحيح أن السودان لم يصل مرحلة النقاب الأفغاني، أو قطع رأس الأميرة، وحظر النساء من قيادة السيارات لكراهيتهن السعوديين. جزء من النظافة الشاملة الغرض منها المحاولة الحادة لحماية شرف (وحقوق الملكية) للنساء لقد منعت الدعارة والصور أو الكتابات أو الأفلام الإباحية، واستغلال النساء للأغراض التجارية. الثوب وهو زى تقليدي جرجار وتغطية الرأس وليس من الضرورة الخمار أمر مشاع. يفضل الترابي الزى الأكثر حداثة كالعباية، التي تشبه القفطان أكثر. ويعترض على الثوب بوصفه أكثر إعاقة في الحركة. لدى الترابي وجهات نظر أكثر تحرراً حول المرأة، بالمقارنة مع معظم رجال الدين. زوجته

وصال أخت الصادق المهدي معروفة (ساحرة)، قيادية نسوية ومناصرة لقضايا المرأة في الإطار السوداني. وكنت ضيفاً بمنزل الترابي (بالرياض ضاحية من ضواحي الخرطوم المترفة) لمأدبة عشاء صغيرة، وأشرفت على ذلك في غياب زوجها. وهذا أمر غير عادي في مجتمع محافظ. وأيضاً أجريت معها مقابلة في مناسبة أخرى على سطح منزلها لمناقشة ختان الإناث. وكانت حول هذا الأمر في غاية التحرر والسخب. تأثر الترابي بزوجته في موضوع حقوق المرأة، على الرغم من أنها مواطنة درجة ثانية أو ثالثة في المصطلح الغربي. ما زال لها بعض من حقوقها محمية ليست أقل من التعليم (غير مختلط). الحكومة ما زالت مستمرة في استعراض ما يمكن أن تتمسك به، حول عدم السماح للنساء بارتداء البنطلون. وما زالت تهدد بجلد أولئك المذنبات بيأس وتعاسة بعد قرون استطاع خلالها أن يترشح نظام البشير، لقد هيمنت فكره الذي الغير متواضع شن حملات تأديبية بواسطة قوات الدفاع الشعبي في المناطق الحضرية أمر بالنسبة للغربيين خاصة في وجهة حرب بدأت حاضرة في الجنوب.

الترابي رجل لديه كثير من المتناقضات. مثال لذلك في عام 1996م، أجريت معه مقابلة بمكتبه بوصفه رئيساً للبرلمان. تحدثنا عن موضوع الرق والإرهاب لتفويض الإسلام وحكمة الخرطوم. "الأمريكان يعلمون أن الأمريكان الأفارقة متعاطفون جداً مع السودان" فيما أعلن. أنهم يريدون إقناع الأمريكان الأفارقة بأن سياسة الولايات المتحدة تجاه السودان صحيحة، لأن السودان متورط في الرق. لا يوجد رق في السودان على الإطلاق".

لقد تحدثنا أيضاً عن أسامة بن لادن الذي كان يسكن تقريباً جاراً له في ضاحية الرياض. لقد أكد أن الرجل السعودي كان يعمل في العمل التجاري البحث، خاصة أعمال البناء. ثم تحدث الإمام حول دراسته في الولايات المتحدة وفرنسا. واحدة من العبارات المحببة يكررها الترابي بانتظام حول مساعدة الإسلام إزاء الغرب، يقول "نحن نعرفهم جيداً أكثر من معرفتهم لنا" الشيء الذي من المحتمل أن يكون حقيقة "أن الإمام الذي تعلم في استربون، كان ذكياً ويتبع السياسة الغربية عن قرب" إنه يستعرض في المحادثات الخاصة مثله مثل كثير من الإسلاميين، اعتقاداً مكتئباً

بالفساد المرعب للمجتمع الغربي مثل لينين، تأكيد ميوله بحتمية تدميره لنفسه، من ناحية أخرى أنه يبتهج ببراعته في اللغات والثقافات الأجنبية. لم نناقش أكثر روائي سوداني شهير وهو الطيب صالح، ولكن أشهر عمل لصالح موسم الهجرة إلى الشمال (1969م) استولى على بعض ازدواجية الترابي نحو الغرب وخاصة نسائه. صالح الذي سعى للمنفي في لندن وعمل مع الإذاعة البريطانية، شهد روايته تحظر في السودان، على الرغم من وصفها من أكثر الروايات العربية أهمية في القرن العشرين. لقد رد اعتباره في الخرطوم. وعندما توفى عام 2009م جائزة أدبية كبرى سميت باسمه.

البشير كان أقل تركيزاً واهتماماً بالموضوعات الثقافية والاجتماعية، وحتى بإقامة الدولة الدينية. لقد ترك هذه الأمور لإمامه الأكثر تعليماً. بعد الانقلاب ركز الجنرال تماماً على إعادة إصلاح الجيش وكسب الحرب في الجنوب. بوصفه رجلاً عسكرياً قرر البشير زيادة حجم القوات المسلحة وكفاءتها، إنه ما زال الاقتصاد السوداني ضعيف. ميزانية الدفاع السنوية الموروثة كانت حوالي 500 مليون جنيه غير متضمنة تعزيزات أنظمة الأمن الداخلي. قبل ثراء حقول البترول، كان حجم الجيش قد زاد فقط بنسبة 10%، حوالي 65000، على الرغم من أن البشير يريد دفعه إلى 7800. ما زالت مستويات القوى المتطوعة والبطالة عالية بدرجة لا يمكن معها تقديم عرض كبير للتجنيد. وعندما دخلت إيرادات البترول تم رفع عدد الجيش إلى 100,000 وفي 1998م تم إدخال التجنيد الإجباري في الجيش بشكل كامل، للذين تتراوح أعمارهم بين 18 إلى 30. هذه هي المرة الأولى التي يستخدم فيها التجنيد الإجباري للقوات. لقد تضاعف حجم القوات الجوية، مع أن تحسن القدرة القتالية لها قد تم بشكل طفيف، بسبب ضعف الصيانة وقلة العملة الأجنبية لشراء الإسبيرات. قوات الدفاع الشعبي التي تستدعي بعشرات الآلاف عبارة عن بديل مؤقت. وجود جيش صغير احترافي وعدد كبير من قوات المليشيا يزعج القائد الأعلى للجيش، لكن تجربة المليشيا في الغرب وعلى طول الحدود، تُعَدُّ عملية لحد ما، وعليه فقد سعى الجيش لتحسين تدريب المراحيل ودمجهم بمظاهرهم المختلفة، حتى وصول الأموال لتدريب عدد كبير من الجيش الاحترافي الذي يستطيع قتال المتمردين

في الجنوب وليس فقط احتواءهم. قوات الدفاع الشعبي لم تصبح فعالة مثل الموجهين التابعين للحرس الثوري الإيراني، الذين يحضرون بشكل متقطع. أحياناً في الجنوب يقومون بأداء جيد كما في العمليات الاستوائية والنيل الأزرق، ولكنهم أيضاً ينتهون في بعض الأحيان طعاماً للمدافع. في الغرب رجعوا لعادات قطع الطريق من الحين إلى الحين. وبشكل عام بالنسبة لتضحيات الشهداء، فإن قوات الدفاع الشعبي ليست بالقوة التي كان يرجوها الثوار الإسلاميون. إنهم أكثر نجاحاً في المناطق الحضرية، مليشيات للجبهة الإسلامية فيما يتصل بقوانين النظام العام.

ثورة العالم:

فيما يتصل بالثورة البلشفية، فإن انقسام الترابي يختلف عن الذين يدعون لثورة في بلد واحد، وأولئك الذين يؤمنون برسالة ثورية في العالم. بمجرد خروجه من السجن في الشهور الأولى للانقلاب، عمل الترابي مع زوجته لتأسيس المنظمة العالمية للنساء المسلمات التي تكونت في نهاية عام 1989م. إن مناسبة تسريع رسالته للعالم ليدرك العار الذي لحق بالدول العربية في حرب الخليج الأولى. وفوق ذلك وضع القوات الأمريكية الكافرة في نفسه الذي توجد فيه الأماكن المقدسة: المدينة المنورة ومكة. لهجة دبلوماسيي الخرطوم العالية أغضبت الأمريكيين، التي تظهر أنها مساندة لصدام حسين، لكنهم فيما بعد (دبلوماسيي الخرطوم) بدأوا محاولة تجميل من خلال حديثين بفم ممتلئ: حيث قالوا: إنهم يعارضون التدخل الغربي لإخراج العراق من الكويت، في حين أنهم لا يوافقون في الأصل على الغزو الذي قامت به بغداد. هذا التوضيح ضاع في العادة في الترجمة. ولأسباب اقتصادية جزئية، ولكن أيضاً لأسباب عقائدية سمح السودان لكل الإخوان المسلمين بزيارة البلاد، من دون الحصول على تأشيرة. وهذا شمل الإخوان في كل القطاعات، بما في ذلك المحاربون الأفغان. بدأ الترابي سفريات ممتدة شملت رحلة عودة الولايات المتحدة، لحضور مؤتمر فلسطيني في شيكاغو (لقد زار الولايات المتحدة الأمريكية لأول مرة لمدة ستة أشهر، في بعثة دراسية من الحكومة الأمريكية في الستينات). في ربيع 1991م كون الترابي المؤتمر العربي الشعبي الإسلامي نوعاً من البديل، لكنه أكثر راديكالية من الجامعة العربية. أول اجتماع له كان في أبريل 1991م، ولقب بأنه أكبر حدث من

حيث الأهمية، منذ سقوط عهد الخلافة من خلال وصف إعلام الخرطوم الخانع. الإسلاميون من الشرق الأوسط كانوا موجودين هناك بقوة. ولكن أيضاً جاءت مجموعات صغيرة من الولايات المتحدة وبريطانيا. لقد وافقوا سراً على تكوين الجيش الإسلامي الدولي، مظلة للمجموعة السنية الراديكالية. ذهب الترابي في جولات يحاضر في المناطق الإسلامية الملتهبة مثل أفغانستان وباكستان. على الرغم من أنه لا يتفق مع ما يقول به ويفعلها آيات الله الخميني، على سبيل المثال الفتوي المتعلقة بسلمان رشدي، فإن المفكر السوداني عمل على محاكاة تكتيك آيات الله، بتوزيع CDs وفديوهات تحتوى محاضراته، والتي أصبح لها شعبية في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي. رسالة الترابي للعالم سرعان ما قادت إلى حضور راديكاليين مختلفين على نطاق واسع من كشمير وأفغانستان وشمال إفريقيا. واستضافت الخرطوم وبشكل استفزازي مجاهدين من مصر. وأكثر ضيف مثير للجدل بكل المقاييس هو أسامة بن لادن الذي انتقل إلى منزل كبير في ضاحية فخمة في الخرطوم أواخر عام 1991م، وأن طائرته الخاصة التنفيذية مخصص لها منطقة معزولة وحماية جيدة في مطار الخرطوم. وجود بن لادن كان عاملاً رئيسياً في فرض الولايات المتحدة عقوبات على السودان.

ركز الترابي في أهدافه الدولية على تعزيز علاقته مع بن لادن، وذلك بالسماح للميلونير السعودي بالزواج من بنت أخته زوجة ثالثة له. وبالتزامن فقط استثمر 50 مليون دولار في بنك الترابي المفضل؛ بنك الشمال الإسلامي في الخرطوم. وفي الأثناء علم البشير بهدوء من تعزيز موقفه في الداخل، خاصة في الجيش. لقد تم حل مجلس قيادة الثورة في أكتوبر من عام 1993م، وأصبح البشير رئيساً للجمهورية. الرئيس المنضبط الجديد لم يقم بنشر آرائه على الهواء للجمهور حول تعليقات الترابي حول الصحوة الإسلامية العالمية، أو تزايد الاهتمام الأمريكي بتدفقات المجاهدين في السودان. لم يورط الترابي نفسه في أي دور حكومي رسمي، ويظهر أنه يؤمن بأن رسالته العالمية، أكثر أهمية أثناء جولة لمحاضرة بتاريخ 26/ 5/ 1992م بكندا، والترابي وقتها قد بلغ الـ 60 من العمر اعتدي عليه بطل كراتي سوداني في المنفي. ويبدو أن السوداني الناغم هاشم محمود لم يخطط للاعتداء. لقد

قال إنه رأى أمامه الأرض حمراء عندما حدث أن اكتشف الترابي بمطار أتوا، وضرب الإمام ولكمه مرتين بشدة بحافة يده. لقد جرح الترابي بشدة وأمضى أسبوعين في المستشفي ليسترد وعيه من الإغماء. لقد عاني لوقت طويل صعوبة في الكلام والمشي، لكنه استعاد عافيته تدريجياً.

وبعد ذلك ما إن يعمل الترابي أو يقول شيئاً متناقضاً، إلاَّ وكثير من السودانيين ينسبون ذلك لتلك ضربة الرأس. عندما أجريت مقابلة مع الترابي في أغسطس 1996م، كان كلامه واضحاً وفصيحاً جداً. لم ألاحظ أي دليل على تلعثم في كلامه أو تعثر في المشي نتيجة خلل في العقل. إن المثقف السلس السلوك، ما زال مستمراً في منزله يظهر بارتدائه البنطلون وربطة العنق، أو سواء بارتدائه الجلابية يسحر كثيراً من زواره ويلقى المحاضرات على المستمعين.

لكن أصبح الجيش والبشير أقل تجمعاً حول راعيهم الرسمي. هذا وقد تزايد هياج وزارة الخارجية الأمريكية من معسكرات الإرهاب في السودان للفيلق الخارجي للمجاهدين، الذين تمت دعوتهم أو طلبوا اللجوء إلى السودان، وتنفي الخرطوم بثبات اتهامات معسكرات الإرهاب. السودانيون كذلك متهمون بمساعدة الهجمات ضد القوات الأمريكية المشاركة في عملية الأمم المتحدة لإعادة الأمل في الصومال عام 1992م. لقد انفجرت قنبلة في 26 فبراير 1993م في مركز التجارة العالمي بنيويورك، وقتل في ذلك الانفجار 6 أمريكيين. وعلى الرغم من أن مجموعة إسلامية مصرية غالباً هي المسؤولة الانفجار، اتهمت واشنطن الخرطوم بالتورط في العملية. أعدت الحكومة الأمريكية قائمة مفصلة بالمجموعات الإسلامية الأجنبية بالسودان مشددة بشكل خاص على منظمة التحرير الفلسطينية حماس، بالإضافة لحزب الله في لبنان، وهم الأعداء الرئيسيون لحليفة الولايات المتحدة (إسرائيل). لقد وضع اسم السودان رسمياً في قائمة الولايات المتحدة للدول الراعية للإرهاب. ولقد وصف أحد الكتاب بأنهم يجتمعون في صحراء للإرهابيين، بينما يجتمع الآخرون في منتجع مدينة Davos على جبال الألب في سويسرا، لمناقشة الشؤون الاقتصادية ومعالجتها. يبدو أن الترابي غافل عن تدنى موقف السودان دبلوماسياً على مستوى العالم خاصة في الغرب. ولربما أنه غير مهتم، حيث يستمتع بشهوته الجديدة في العالم الإسلامي

ويبدو أنه مقتنع بأن سقوط الاتحاد السوفيتي بشَّر بفجر إسلامي جديد. لقد عقد في ديسمبر 1993م مؤتمر كبير آخر حضره إسلاميون بارزون من حول العالم، بما فيهم من القوقاز الذين يحاربون الجيش الروسي. كبار رؤساء من استخبارات سابقين لدول مؤيدة مثل وكالة الاستخبارات الداخلية، كانوا حاضري المؤتمر بفاعلية. لقد تم تسليط الضوء على المعاملة السيئة للأقليات المسلمة في الغرب وروسيا. وتأكد الترابي إنه قد بدأ في الأفق ظهور أمة إسلامية متحدة.

الجهاد في الجنوب:

يركز العسكريون في الخرطوم أكثر على قرب الجهاد في الجنوب. بعد إخفاق مبادرة السلام التي قدمها الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر، عمل جون قرنق على تأمين سند نسف من الدول الإفريقية، خاصة دول الجنوب الإفريقي الأكثر راديكالية، التي أمنت نصر زيمبابوي. والآن يتفقون في اتجاه إسقاط نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا. من النواحي العملية أسهم المتمردون الناميبيون في التبرع بفائض الأسلحة للجيش الشعبي لتحرير السودان. لقد عمل جون قرنق بشدة لتهدئة الريبة بأن سياسة السودان الديمقراطي الموحد ما زالت فاعلة، على الرغم من الحكومة المتشددة في الخرطوم. يجب على جون قرنق إصلاح الأسوار لأن قاعدة الدعم الرئيس له في أثيوبيا انهارت بسقوط إدارة منقستو. في عام 1991م عمل قرنق على محاربة الانفصاليين في أثيوبيا، الذين تدعمهم الخرطوم، خاصة جبهة تحرير الأورومو. عندما تحالفت الخرطوم مع المتمردين في ارتريا، واندمجت مع محافظات التقري في الجبهة الأثيوبية الشعبية الثورية الديمقراطية وغزوا أديس أبابا، وقام النظام الجديد بدفع استحقاقات الخرطوم، قامت الجبهة الشعبية بطرد الجيش الشعبي لتحرير السودان من معسكراتها داخل الحدود الأثيوبية وأغلقت المكاتب والإذاعة في العاصمة. مئات الآلاف من لأجيء جنوب السودان قد أخرجوا أيضاً. قامت يوغندا بسد التراخي الذي حدث في الدعم العسكري للجيش الشعبي لتحرير السودان وهو أحد الأسباب التي جعلت الخرطوم فيما بعد تدعم متمردي يوغندا مثل جيش الرب للمقاومة. إذا ما أصبحت يوغندا الركيزة العسكرية للجيش الشعبي، وإذا بكينيا تنمو قاعدةً دبلوماسيةً رئيسةً وإسعافاً إنسانياً للتمرد في الجنوب.

الجيش الشعبي لديه آلة قتالية متقدمة، لكنهم يفتقرون إلى التماسك السياسي واستقرار الظروف الاجتماعية في الجنوب، والتي تفاقمت بالتدفقات الجديدة للاجئين. وكان جون قرنق ينتقد باستمرار لدكتاتوريته واستبداده، والتي ليست أقل من قتله أو سجنه القادة المنافسين له، وأشهرهم حليفه السابق كاربينو كوانين بول. القائد الدينكاوي وضع في حبس قاسٍ لمدة ست سنوات في أحد معسكرات سجن الأرخييل التي يديرها قرنق. واستطاع أن يهرب عام 1993م.

الانقسام الكبير للجيش الشعبي:

يأتي على قمة الطرد من الملاذات الأثيوبية، الانقسام الكبير الذي حدث داخل الجيش الشعبي عام 1991م، والذي أضعف المقاومة العسكرية لسنين، وترك الإرث السياسي يتقرح لعقود. عدد من القادة خططوا ترك قرنق بينهم لام أكول ورياك مشار الذين عادة ما تحوم حولهما الشكوك. وبدأت الخرطوم تتودد بشكل دائب للقادة المنشقين لكن أغلبية الضباط الكبار للجيش الشعبي يساندون قرنق بصدق، لأن الوحدة مسألة أساسية في وقت الضعف الذي أعقب الخسارة العصيبة لأثيوبيا. كثير من النوير تأهبوا لإتباع الجنرال التقليدي لهم مشار، وإن الوحدات حول الناصر ساندوه بشكل مفتوح. وبدلاً من إسقاط الجيش الشعبي مشار وأكول، عملوا على إقامة منظمة منافسة سميت بالجيش الشعبي قطاع الناصر. لقد قوى ذلك من الانشقاقات الإثنية التي أصابت حركة المقاومة الجنوبية وأيضاً ساعدت في إشعال الحرب الأهلية بعد الاستقلال. الناصر كانت مدينة دمرتها القذائف. لكن لديها خطط لهبوط الطائرات وإقلاعها، تستخدمه طائرات الإغاثة الخاصة بالمنظمات غير الحكومية.. والناصر أيضاً مقر غير طبيعي، وفيها حدثت قصة مأساوية.

لقد التقى رياك مشار بـ إيما ماكلين، وهي عاملة إغاثة إنجليزية جميلة ومثالية لقد تزوجا على الرغم من أن مشار له زوجة تزوج بها بالطريقة التقليدية. وبعد أن عاشا في حب قالت إيما: إنها تود أن تنهش وتساعد أمير حربها إصدار بيانه الرسمي. تدخل المرأة الإنجليزية في الشأن السياسي بالجنوب تسبب في إزعاج كبير، حيث إن قرنق في مرة من المرات وصف الانشقاق بأنه نتاج لحرب إيما. لقد علق الاسم وأصبح عنواناً للقوة وكتاباً قيثارياً ألفه دابورش اسكروقنز.

وأصبحت المسألة أكثر إزعاجاً لقرنق، بعد أن أرسلت الخرطوم أسلحة وأموالاً نقدية لدعم الجيش الشعبي قطاع الناصر. ودخل مشار مناطق الدينكا التقليدية، وأخيراً شعر قائد الدينكا الرئيس بأنه أجبر على الرد. الدفع العسكري لمشار الغرض منه استعراض قوته وكسب قادة آخرين بعيداً من قرنق، مع أن الهجمات على الدينكا من المحتمل أن تؤكد تضامن الدينكا حول قرنق بشكل أكبر وهذه من الحسابات الكلاسيكية الخطأ الأخرى لمشار. قوات النوير والمليشيات التابعة لمشار والمعروفة بالجيش الأبيض، استولت على منطقة تتبع لمنافسيهم. يتكون الجيش الأبيض إلى حد كبير لو نوير من أعالي النيل وجونقلي، الذين يمسحون وجههم بالرماد الأبيض كواحدة من العادات التقليدية لديهم. إن انشغالهم الرئيس هو نهب الأبقار، خاصة من أعدائهم القدامى المرلي. في 15/ نوفمبر 1991م استولت مجموعة مشار التي تتألف من عناصر مختلفة على بور وقتلت أكثر من 2000 من الدينكا وفقاً لإحصاءات منظمة العفو الدولية. التقديرات الأخرى تتحدث عن أرقام العفو أعلى على الرغم من أن مشار قد وصف مجزرة بور بأنها أسطورة ودعاية مضادة في وقت اعتذر فيه عن فظائع حدثت عام 2012م.

المجزرة لم تُنْسَ أبداً في الجنوب، وأصبحت أوحش رمز للتصدع بين النوير والدينكا، وعلى الفور بعد أن وصلت أخبار المجزرة رئاسة الجيش الشعبي في توريت، وجه قرنق الجيش الشعبي بقيادة حملة انتقامية كبيرة ضد الجيش الشعبي قطاع الناصر.

على الرغم من سحق جيش الحركة الشعبية القطاع الرئيس لقوات مشار وأكول، استمرت الخرطوم في معاملة القائدين بشكل جاد. البشير صاحب خبرة فرق تسد في الجنوب، قام بتعيين فريق من كبار العسكريين للتعامل مع مليشيات مشار. وقال كبار ضباط الاستخبارات أكول في كينيا وألمانيا لعمل ووعدوه بفدرالية في الجنوب لكن ذلك الوعد لم يكن واضحاً.

قد يكون مشار فكر قبل جيج بان ترسانة الأسلحة الجديدة من الخرطوم أكثر أهمية وأساسية من ناحية تكتيكية لصد تقدم الجيش الشعبي. الخرطوم لها أفكار أخرى: أنها يمكن لها استخدام التحالف الجديد، وأن الجيش النظامي للشمال يسمح

بممر من خلال أراضي النوير للوصول لقلب مواقع الجيش الشعبي حتى رئاستهم في توريت لإزاحة قرنق. وعندها يطلب جنرال الجيش الشعبي اللجوء إلى عمق الغابات في مرتفعات ديديفا الجميلة والتي كثيراً ما تكتنفها السحب.

أمر قرنق في يوليو 1992م بالهجوم على عاصمة الجنوب جوبا من اتجاهات متعددة وقام المتمردون باحتلال مؤقت لأجزاء كبيرة من المدينة بمساعدة قوات جنوبية في الحامية. وأخيراً تم صد الهجوم الذي تكبد فيه الجيش الشعبي خسائر فادحة خاصة في المعدات التي لا تقوى على الخسارة. عدد من القوات الاستوائية والمدنيين قتلوا بعجلة بواسطة القوات الحكومية.

لم تذهب الخرطوم بالهجوم بمجرد الدخول في جوبا جزئياً، لتقييم استخباراتي أوضح أن الوصول الأخير لقوات السلام الأمريكية في الصومال ربما نبأ بخطر أمريكي للطيارات في جنوب السودان. تلك كانت إشارة واسعة، لأن للأمريكيين عدم قدرة للسيطرة على الأجواء حتى حول مقديشو حيث إن طائرات الهيلكوبتر الخاصة بأمريكا أسقطت بواسطة المقاتلين المحليين. لم يستشار كبار القادة الاستوائيين حول الهجوم على جوبا، والآن هربوا إلى الجيش الشعبي قطاع الناصر.

وللمزيد من أول الحصاد الدسم، قام الجيش الشعبي قطاع الناصر بإعادة تسمية نفسه بالجيش الشعبي/ والحركة الشعبية المتحدة وأن الجيش الشعبي أصبح الآن يشار إليه في الخارج بالجيش الشعبي الجناح الرئيس. كلتا الفصيلتين للجيش الشعبي أياً كانت العناوين – فإنهما يقاتلان بعضها بعضاً بشدة (يشبهون الأفغانيين عندما حوالي 40 من المجموعات المجاهدة أمضوا وقتاً طويلاً يحاربون بعضهم بعضاً بدلاً من المحتلين الروس في الثمانينات). والجيش الشمالي لا محالة عمل للاستفادة من الانشقاقات، من خلال نشر قوافل ثقيلة التسلح، في محاولة لاستعادة مدن مثل رمبيك، التي ظلت في أيدي المتمردين. رغم ذلك استطاع الجيش أن يحقق تقدماً أكبر في جبال النوبة، وآخر مدينة يسيطر عليها الجيش الشعبي أم دورين سقطت في أغسطس 1993م. ثم أعلن الرئيس البشير أنَّ كل جبال النوبة سيتم السيطرة عليها في الصيف القادم. استطاع قرنق أن يحافظ على الجيش الشعبي الرسمي من السقوط من خلال الانضباط القوى وزيادة الدعم الخارجي. إن قيادة

مشار للانقسام لا يمكنها حل التناقض المركزي. لقد طالب بالانفصال للجنوب معارضة شاملة لوجهة نظر قرنق.

حتى الآن العمل المشترك لمشار للاعتماد على نظام الحكم العربي الإسلامي المتشدد، لا يبدو أنه من المحتمل ضمان تحقيق الانفصال. منظمة الوحدة الإفريقية، وبشكل خاص النيجيريين، عملوا على محاولات عديدة لإصلاح الانقسامات بين مشار وقرنق وتوحيد التمرد في الجنوب. الأمريكيون الآن أكثر تورطاً في الصراع بالسودان، واقترحوا المنظمة الإقليمية الإيقاد (الوكالة الحكومية للتنمية) بوصفها تجمعاً دبلوماسياً رئيساً لحل محل مجهودات السلام النيجيرية. لقد تم الجمع بين قرنق ومشار في واشنطن أواخر أكتوبر سنة 1993م. لم يتحقق شيء يذكر من الاجتماع، ولكن هناك نموذجاً من الاهتمام بالكونجرس بالحرب الأهلية، والتي يمكن التلاعب بها بواسطة اللوبيان الأمريكية القوى خاصة اليمين المسيحي ومجموعات الأمريكان الأفارقة. لقد دعمت الإيقاد اجتماعات كثيرة في الإقليم، أخفقت في تحقيق مصالحة بين الجنوبيين أو إغراء الخرطوم.

التعقيدات المفبركة للحرب الأهلية من خلال الحرب الأهلية، سمحت لكاربينو بالهروب من مخبئه تحت الأرض. إنه واحد من أكثر قادة الجيش الشعبي، نابض بالحيوية. إنه كاثوليكي ولد عام 1948م، ونشأ في عشرة الدينكا نفسها التي ترعرع فيها قرنق. يُعَدَّ مثيراً للمرح وقابلاً للتهور من قبل القادة الآخرين. لقد مثل الحركة بوصفه نائباً للقائد العام بمؤتمر السلام عام 1986م، في واحدة من مناطق الإمبراطور القديمة بالقرب من كوكادام الإثيوبية. وبمعرفته الكلية وعصاة ذات المقعد كان يجرى مقابلات صحفية من وقت لآخر في نيروبي، حيث زوجاته العديدات، وحوالي 20 من أبنائه يعيشون في تخفي آمن. من الواضح أنه كان يخفي تلطعاته للوظيفة العليا. عليه، فإن الضربة الاستباقية لقرنق ضد صديقه ربما لم تكن فقط بدافع من جنون العظمة الستالينية. كما حدث مع كثير من قادة المتمردين الجنوبيين. عرضت الخرطوم عليه فرصة لتكوين مليشيات من الدينكا موالية للحكومة، ولكن القبول الشعبي لكاربينو لا يكافي ذلك الذي يتمتع به جون قرنق عند قبيلة الدينكا. لقد ترك جانب الحكومة وعمل قائداً مستقلاً في الجنوب، مرتباً للاستيلاء على واو

لوقت قليل. فيما يتصل بقوة هذا الإنجاز. يُعد أن له مقدرة القائد الميداني – لقد طلب من قرنق أن يرجعه للفصيل الرئيس (الجيش الشعبي). غير أن قرنق ليس برجل مسامح، ولكن أرجع صديقه القديم من عشيرته واحتفظ به في رئاسة الحركة ضابطاً في الهيئة، وغير مؤتمن بقيادة ميدانية أخرى. لقد أغضبه هذا المسلك، وهرب مرة أخرى للشمال حيث تحالف مع قائد خائن آخر وهو فاولينو متيب نيال. وذهب متيب ليقود أقوى مليشيا مؤيدة للحكومة في الجنوب. وأيضاً كون إمبراطورية تجارية وسط جماعته من نوير بول، مقدماً ومؤخراً بين الجيش الشعبي والخرطوم (لكن بتأثير إستراتيجي أكثر من كاربينو) وأيضاً أصبح منافساً لقائد بارز آخر من النوير وهو رياك مشار. إنه ليس من الواضح ما إذا كانت الاستخبارات العسكرية الفاعلة للخرطوم لها يد في مؤامرة أخرى في نيروبي لقتل قرنق أثناء اجتماع لإيقاد، لكن ربما تكون متورطة في موت كاربينو في الوقت نفسه. كاربينو وقع مع متيب، وإشاعات على السطح مشبوه حول تبادل للنقار قتل خلالها الدينكاوي العجوز القلق حيث واجه مصيره بشجاعة.

وبمعزل منه يصنف كاربينو قائداً قومياً، لكن حياته المهنية تشير إلى العالم البيزنطي للقيادة في الجنوب، والنجاحات المتكررة لوكالات الاستخبارات الشمالية في معالجة ذلك. المليشيات الموالية للشمال تستخدم أحياناً عبارة قديمة عالية الهجوم لوصف إستراتيجية فرق تسد (Aktul al-obid bil abd) أقتل العبد بالعبد. وبدبلوماسية أكثر يسمى التكتيك "إستراتيجية السلام من الداخل"، العمل على التوصل إلى اتفاقيات مع متمردين يقيمون مع الخرطوم خلافاً للجيش الشعبي الرسمي. وبسرعة يتطور ذلك لميثاق سلام بشكل رسمي في عام 1997م.

الميثاق تفوح منه رائحة ما أطلق عليه التسويات الداخلية التي تبنتها الأنظمة البيضاء في روديسيا، وأخيراً في جنوب غرب أفريقيا. أيضاً حاولت حكومة الفصل العنصري تطبيق السياسة نفسها في مناطق السود بجنوب إفريقيا عندما أوقف المؤتمر الوطني الإفريقي. وقد تعامل البيض في النهاية مع القادة الحقيقيين لحركات التحرر تماماً، كما كان على الخرطوم أن تكتشف.

الجيش الشعبي المتحد استمر يعرف الأصلية المناوئة له، ولكن سرعان ما أخفق في أن يتعايش مع اسمه (المتحد). الاشتباكات الداخلية القبلية للنوير، بالإضافة إلى الصراعات التقليدية غير السياسية مع القبائل المجاورة تسببت في الضحايا، خاصة حالياً أن محاولي الحكومة كثر. ولإعادة تنظيم نفسه عقد الجيش الشعبي المتحد أول مؤتمر له كبير أكوبو سبتمبر 1994م، وفقاً للأسلوب التقليدي في الجنوب أن الاسم الجديد سيأتي بالعجائب. بعض القادة الذين عُدُّوا مقربين جداً من الخرطوم أمثال أكول وكاربينو قد أزيحوا. لقد أخذ الناجي العظيم مشار بقيادة حركة جنوب السودان المستقلة (جيش الحركة) الجديدة. لقد فشلت الإستراتيجية وانسحب مشار إلى مركز حكومي في كدودك في النيل الأبيض. كثير من قواته وقادته انضموا من جديد للجيش الشعبي الأصل. مشار البائس سافر إلى أديس أبابا للالتحاق بمعارضي الخرطوم في المنفي، الذين يشكلون التحالف الوطني الديمقراطي (وأن قرنق في ذلك الحين عضو بارز فيه) وقبل عضواً لكنه مهمش. لقد طرد مشار من البلاد بواسطة الحكومة الجديدة. بعد ذلك حاول مراجعة التأييد الداخلي له وسط أراضي النوير، ولكن مغامرة لعبه البوكر لديه لم تكتمل. وأصبح ليس أمامه مكان يذهب إليه سوى الخرطوم. وإلى جانبه كاربينو وبعض القادة القبليين الآخرين، وقع على سلام منفصل مع الرئيس البشير، وذلك عبارة عن استسلام من دون قيد ولا شرط. كان ذلك في أبريل 1997م، وكانت وفق ميثاق تم التوقيع عليه قبل عام. وإبان الميثاق بشكل واضح أن السودان يظل موحداً ولكن دون تحديد تاريخ ذكر الميثاق أن الجنوبيين يمكنهم إجراء استفتاء حول النظام الفدرالي. هذه كانت أداة دعاية كبيرة للحكومة في صيف عام 1996م قد سافرت في جولة حول الجنوب على قطار يسمى قطار السلام. الرجل العالي الطول مشار صاحب كاريزما على الرغم من عينيه الناعستين وبسمته ذات الفلجة، استطاع سحر الأجانب بأسلوبه التعليمي (حصل على درجة الدكتوراه من جامعة براد فورد بالمملكة المتحدة). ولكن باستثناء ولاء النوير الجوهري له، يبدو أنه يواجه مشكلة إقناع التجمعات الصغيرة داخل المدن التي تسيطر عليها الحكومة مثل واو، ليحل محل منافسه جون قرنق، أو إقناع الخرطوم لمنح الجنوب حكماً ذاتياً له معنى. لقد حيت مشار فرقة عسكرية عند

وصوله إلى حامية الحكومة الرئيسة داخل واو. ترتدي الفرقة زياً غريباً، وتبدو أنها من فترة الثورة الفرنسية وعزفها الموسيقي، كان من أكثر الأنغام غير المتناغمة التي سمعتها في حياتي. إنها كانت رمز التمثيلية التحذيرية العبثية.

وفقاً لأحد المراقبين الفطنين "أن ميثاق السلام أنه ليس فقط لم يجلب السلام ولكنه أخفق في إيقاف عودة الجيش الشعبي عسكرياً وسياسياً. ليس لـ رياك مشار أو الحكومة الكثير الذي يمكن لهما أن يعرضاه فيما يتصل بتعاونهما. "الميثاق أيضاً سرع من الحرب الأهلية عند النوير. استطاع مشار المساعدة في إضعاف الجيش الشعبي مؤقتاً، وأيضاً سلم حقول البترول لتصبح تحت سيطرة الخرطوم بشكل فعال.

فاولينو متيب الذي منح رتبة الفريق في الجيش السوداني، كان غاضباً لأن الخرطوم اختارت مشار لقيادة النوير ورفض العمل تحته وعلى الرغم من ذلك استمرت الحكومة بالدفع لـ متيب نشر مليشياته من النوير لحماية المنشآت البترولية في بانتيو. لقد قلل مشار من مقام نفسه في نظر كثير من الجنوبيين.

تعرض جيش الحركة الشعبية للضرب بالاقتتال الداخلي، وهجمات ثقيلة من الحكومة في عام 1993 – 1994م. وفي أبريل 1994م عقد قرنق مؤتمراً كبيراً في شكروم. حضر المؤتمر حوالي 500 نصفهم من المدنيين، وما تبقي قادة من الجنوب وجبال النوبة والنيل الأزرق. كان قرنق يرغب في استعراض التأييد له من المدنيين والعسكريين، وأنه مهتم بقضايا سكان الريف رغم الإدعاءات الكثيرة حول انتهاكات حقوق الإنسان. تنظيم الحركة الشعبية ضعيف في الخارج، لكن عدداً قليلاً من دول المهجر قد حضروا أيضاً. إن قضية الاستقلال التي تناقض الوحدة السودان الجديد لم تحل، لكن المظهر وبعض المطالب الجوهرية للجيش الشعبي فيما يتصل بتمثيل كل مواطني الجنوب قد تم تداولها.

الظهور المجدد لجيش الحركة الشعبية، مع انهيار فعالية جيش مشار يعني، أن الجزء الأكبر من القتال هو الآن لا يتم عن طريق المليشيات الجنوبية الموالية للحكومة، لكن عن طريق الجيش النظامي وقوات الدفاع الشعبي. لقد قاست الخرطوم تضحيات كبيرة، بما في ذلك مقتل أخ الرئيس البشير أحمد الذي كان متطوعاً في قوات الدفاع الشعبي. وبدأت قوات الحكومة في التراجع في وقت بدأ فيه الجيش

الشعبي يكسب سلسلة من الانتصارات في الاستوائية أواخر عام 1994م، وفي بحر الغزال أوائل عام 1995م. في هذه العكسات خاصة قوات الدفاع الشعبي والجيش النظامي على حد سواء، عانيا مقتل وجرح الآلاف في الشهور الأولى لعام 1995م. على الرغم من التعتيم الإعلامي المتشدد الذي تنتهجه الخرطوم، إنه دائماً يوجد مكان ترشح منه الأسرار، وسرعان ما انتشرت التقارير الصحيحة من خلال معمل الشائعات. لقد قتل متطوعو الدفاع الشعبي. في بداية عام 1996م كانت الروح المعنوية للقوات الحكومية متدنية، وأحياناً ترفض الحاميات في الجنوب مغادرة تحصيناتها. قام البشير بإجراء آخر للتخلص من الانهزاميين.

فيما عدا المدن الكبيرة، الجيش الشعبي الآن يسيطر تقريباً على كل الجنوب. المليشيات المتحالفة مع الخرطوم لوقت طويل سلمت أسلحتها للجيش الشعبي. وحتى المليشيات العربية الصارمة في جبال النوبة أجرت اتفاقيات مع الجيش الشعبي. لقد استسلمت كتيبة كاملة من الجيش السوداني في يرول إلى الجنوب الشرقي من رمبيك. وبحلول ربيع 1996م، بدأ الجيش الشعبي وكأنه لا يمكن أن يتوقف. الثورة العسكرية في الشمال تبدو أنها تتلعثم، وتأكيدات الترابي حول تشكيل جهاد جديد بناءً على الاهتداء المعنوي لا يعمل مقابل بندقية الجيش الشعبي. قد يتغير المجتمع ولكن أرض المعارك فلا.

وأن ذلك في الأصل قد كون بنهاية الحكومة السابقة ولكن تم تطويره بالكاد جيشاً إسلامياً ومنظمة استخباراتية تحت نفوذ الترابي. معظم الأموال الخاصة بتمويل هذه المنظمات الإسلامية تأتي من بنك فيصل الإسلامي. لقد تم تكليف الفريق الثوري المتعصب بكري حسن صالح للإشراف على كل النظام. الأجهزة السرية منوط بها أن تؤدّي دوراً مهيمنا للحفاظ على استقرار الحكومة لعقود، وبصلابة معتادة استطاع هزيمة الانقلابات المحتملة في الجيش، ولكن بمراجعة السؤال القديم: من الذي يحمي من الذي يحمي؟ وثبت أنه فيما بعد جهاز الدول وهو الذي يهدد النظام الذي أقامه البشير.

لقد أقيمت أفرع داخلة للمخابرات لإزالة كل المعارضة المحتملة في المدن الثلاث والمراكز الحضرية الأخرى. وكذلك قاموا بتطبيق المعايير الإسلامية، كما تم تشجيع العاملات بالدولة، للذهاب للمنازل لخدمة أسرهن. أما اللاتي حُسِبَت لهن أهمية فائقة، عليهن ارتداء زى محافظ إسلامي. كثير من المهنيين خاصة الأطباء والمحامين والصحفيين بحكم المهنة أودعوا في السجون، وعادة من دون تقديمهم لمحاكمات. وأيضاً تم تطهير القضاء. قد تم إقامة معسكرات للاعتقال. أعدت الصحافة الأجنبية قوائم المختفين، ويتم التعذيب في بيوت الأشباح (لقد بهذا الاسم لأن الناس تؤخذ ليلاً).

هذه هي حسابات الخرطوم وخصوماتها، ولكن المواطنين يتم جلد الأفراد ومعاقبتهم لصناعة الخمر وحيازتها وشربها علناً. كما يتم إعدام المتعاملين في المخدرات. وتتم العقوبات في التعامل غير المشروع في العملية الأجنبية، على الرغم من الحظر. فيما بعد أصبح الاقتصاد النقدي البحت والتعامل في العملية الأجنبية عملاً وطنياً، خاصة الدولار الأمريكي ومن دونه يتوقف الاقتصاد.

التطبيق الجائر لقانون الشريعة دفع لهجرة المهنيين خاصة الأطباء والمهندسين، حيث إن لمهاراتهم قيمة على نطاق الشرق الأوسط. جزء من نموء المفاجئ للسودانيين بدول المهجر يشمل السياسيين الذين أطلق سراحهم من المعتقل أو هربوا لتجنب السجن.

الأحزاب السياسية التي أبعدت، الاتحادات والمنظمات المهنية وكل المناهضين لانقلاب 1989م كونوا التجمع الوطني الديمقراطي ومقره أسمرا، التي سرعان ما تصبح العاصمة لإرتريا المستقلة التي تتشاجر مع الخرطوم. انضمت الحركة الشعبية للتجمع الوطني الديمقراطي عام 1990م. ما زال السياسيون في الشمال يتداولون الأسئلة الصعبة حول قانون الشريعة في الجنوب والانفصال مقابل الوحدة، ولكن طالما أن الحركة الشعبية هي العضو الوحيد في التجمع الوطني الديمقراطي الذي يستطيع إلحاق الهزيمة بحكومة الجبهة الإسلامية المكروهة فإن الشماليين في المنفى حاولوا إجراء تسوية ملفقة ومع المجموعات المتمردة مثل مؤتمر البجة.

Temporary peace

Surprisingly, the north-south peace deal held for eleven years. After elections in 1973, the regional assembly in Juba stumbled along, despite the ethnic and personal fissures, and the fact that Khartoum still made unwelcome top-down decisions. They also argued about the controversial Jonglei Canal project. At least it proved the northerners wrong – that southerners could make a reasonable stab at a functioning democracy, one far removed from the northern dictatorship. There, the Numeiri government

still struggled to resolve the place of religion in the constitution. On the economic front, following the massive oil-price hikes after the 1973 Yom Kippur/Ramadan war, vast amounts of Arab petro-dollars flowed into Sudan. It was designed to be the breadbasket of the Middle East. The Kuwaitis poured in money for vast agricultural schemes, especially in the sugar industry. And British entrepreneur Tiny Rowland's Lonrho company invested over $25 million to develop, with the Sudanese government, the world's largest sugar plantation near Kosti.

The most important development in this period was the discovery of black gold. In 1978-79 oil deposits were confirmed by the US Chevron company. The oil was mainly to be found in the south. So was this 'southern oil'? The politicians in Juba certainly thought so, and also wanted the refineries to be built in the south. More crucially, southerners demanded the future oil pipelines be built through the south to the Kenyan coast, not via the more accessible northern route to Port Sudan. As in many African countries, oil was to spawn conflict as much as prosperity.

Economic liberalization and Western investments as well as oil development marked a shift in foreign policy, as well as economic advance. As with most military regimes, weapons supplies were a weathervane of such changes. Khartoum's anti-communist crackdowns had helped to sour relations with Moscow, but the Russians still sold their weapons. These supplies dried up when Moscow backed Sudan's Marxist enemies in Ethiopia. China replaced Russian supplies, while Egypt continued to be an important military and diplomatic partner. With the warming of Western economic relations, so too Washington started to sell more weapons, not least to counter Soviet support of Ethiopia and Libya. US arms sales increased until renewed conflict in the south changed the equation.

Some Sudanese historians depict this period of peace in the south, economic growth and (relative) diplomatic success as a golden age. Better relations with Washington were matched by a flurry of economic deals with western European states. In July 1978 Numeiri was elected as chairman of the OAU. Sudan appeared at last to be fulfilling its continental ambitions. Relations with the Arab world were complicated by Numeiri's lonely support for Anwar Sadat's signing of the Camp David accord with Israel in 1978. This pleased Washington, but angered the Arab League.

Numeiri had waged peace with the south and indirectly with Israel and stabilized the economy. Although his military regime was apparently in control, discontent still simmered in the army and Numeiri's long feud with opposition political leaders, especially Sadiq al-Mahdi, had not been ended.

Any accommodation would need a decision on the role of Islam in the state. The earlier compromises of 'freedom of religion' could not be enough for the Islamists. Ultimately, a political settlement in the Muslim north would mean tearing up the deal in the south.

It is a recurring pattern in military interventions worldwide that coup leaders often fail to understand that what they did, others could do to them. In Africa, military dictators often pampered their officer corps and indulged their rank and file, while beefing up military intelligence to ensure that the bribes are working. Often they don't, and history is repeated, again and again, until a charismatic and able civilian politician could sometimes break out of the vicious circle. Numeiri was a long-term army professional, but he failed to concentrate on his army's concerns, despite all the shiny new weapons. Gradually, he became over-confident, boosted by a manic sense of divine mission, a common psychotic trait of leaders after a lengthy term in power.

Numeiri had paid careful attention to the security requirements in the south, but failed to appreciate that this perceived favouritism would fire up the ancient sense of grievance in the west. On 5 September 1975, elite paratrooper units, mostly disgruntled westerners, mounted a coup. They did the usual – arrested some senior loyal officers, and seized the broadcast facilities in Omdurman. They made the mistake of prematurely announcing the capture of Numeiri. But the president had, by chance – or divine providence, as he later put it – shifted his overnight location. Numeiri did not rally his loyal troops, but fled from Khartoum and hid in a friend's house in the capital's outer suburbs. Loyal troops, led by the tough chief of staff, General Muhammad al-Baghir, managed to crush the mutiny in a few hours. It was a small event in the crowded history of Sudanese coups, but it was significant because it helped to persuade an increasingly deranged Numeiri that he had a divine right to rule Sudan. It was then a short step to believing that he alone was destined to carry on the Prophet's mission on earth.

Another coup attempt against Numeiri

At 05.00 on 2 July 1976 a more concerted *coup de main* was planned. It was long customary in Sudan to greet incoming visitors at the airport, no matter what the hour. This was even more elaborately organized when a president returned. General Baghir and a whole posse of ministers were scheduled to greet Numeiri on his flight back from Europe. Numeiri, in another one of his imagined divine intercessions, arrived early and the entourage was dispersing when a wall of fire raked the runway outside the

main airport reception. The president was bundled into a car into a hideaway and General Baghir swung into his coup-crushing operation again. But he had few forces in the capital. He needed to summon units from around the country, with the nearest being Shendi. Communications were down and he used the Sudan News Agency wire services. Troops poured into the three cities on the Friday and allowed loyalist troops to win the day. Surviving rebel soldiers were pursued into the desert and shot out of hand.

Despite its prompt destruction, this coup had been well planned. It might well have worked if Numeiri had arrived on time and been conveniently assassinated at the airport. The man behind the coup was Numeiri's old enemy, Sadiq al-Mahdi. He had formed the National Front in exile in Libya. Under its banner, al-Mahdi had assembled representatives of the traditional parties, all banned under Numeiri's rule. Colonel Gaddafi was a man with a small power base and big ideas, and he had lots of oil money to nourish his dreams of creating a regional empire, which included Sudan, with the first chunk being the occupation of Darfur. The highly volatile Libyan leader later planned to create a pan-African empire. But in the mid-1970s he was focusing on toppling Numeiri. The Sudanese president diagnosed Gaddafi as 'a split personality – both evil'. The Ethiopians connived in Libya's coup plans because Addis Ababa believed that the Eritrean insurgency would collapse without Khartoum's support. The Soviet Union was also in on the plot, disturbed by Numeiri's crackdown on communists, ejection of Soviet advisors and Khartoum's recent tilt to the West. Gaddafi had formed an Islamic Legion to implement his plans, but in his training camps in the southern Libyan desert he had also arranged the training of Sudanese, many of them traditional *Ansar* loyal to al-Mahdi. Some of the *Ansar* had already infiltrated the three cities and had stashed arms ready for the military component whose action at the airport would spark the coup. Some estimates suggest that 3,000 were killed in the brief but bitter putsch. Almost 100 rebels were subjected to show trials and promptly executed. Sadiq al-Mahdi was tried *in absentia* and sentenced to death.

The extent of popular support for the exiled politicians prompted Numeri to offer what was then called 'national reconciliation'. The president was a master manipulator and hoped to entice some exiles to return under a general amnesty, thus weakening the exiled forces. Some communists and *Ansar* returned, as did Sadiq al-Mahdi, who soon left the country, unconvinced of Numeiri's sincerity. Exiled leaders of the Muslim Brotherhood also came back. The most prominent was Hassan al-Turabi, whom Numeiri elevated to the position of attorney general. Al-Turabi set about re-forging the power

and a bad politician – as with nearly all the prominent soldier-statesmen in southern history – Lagu overpaid his favourites and helped to widen the Equatorian v Dinka rift, thus empowering Numeiri's game of divide and rule. In February 1980 Numeiri engineered the sacking of Lagu and the dissolution of the assembly. Abel Alier, much better at working with Khartoum, or a stooge to some southern radicals, returned as president. His mandate was to use some of the Arab petro-dollars to develop southern agriculture and oil projects. Despite his diplomacy, the returned southern president had a short tenure. A report by Alier condemning plans to re-divide the south was treated as a personal insult by Numeiri because it implied that he had been saved from his own cowardice when southern troops rescued him during the 1976 failed coup. Furious, the president simply dissolved the southern assembly and set up a transitional government led by a Muslim southern officer, General Gismallah Abdullah Rasas.

Numeiri's plans for re-dividing the south into powerful regions did appeal to many tribal groups who feared the domination of the populous, statuesque and warlike Dinka. Others saw it as an obvious divide-and-rule tactic by which Khartoum could re-impose Arabization. In December 1982 Numeiri toured the south and was met by unresponsive crowds, unlike his previous tours where he was hailed as a peacemaker. In particular, he was jeered at by hostile students at the well-known Rumbek secondary school. The famously thin-skinned president lost his temper, closed the school and later arrested politicians who opposed the plan to divide the south into three provinces. In June 1983 Numeiri suddenly announced on television that the south would be divided into three provinces: Bahr al-Ghazal, Equatoria and the Upper Nile, with three separate capitals at Wau, Juba and Malakal. This removed Juba as the central hotbed of dissident views and potential southern unity. He also set about Arabizing and Islamizing the south to unify Sudan. Numeiri had in effect torn up the Addis agreement.

In what was termed Republican Order Number One, a chilling Orwellian title, Khartoum set up three provinces with emasculated powers. The regional assembly in Juba was dead. Governors would be appointed by the president in Khartoum. Most of the previous local fiscal authority vanished. Arabic would be the main official language. The carefully balanced security arrangements in the south were also ditched and the newly integrated troops in the south would be sent on garrison duty in the north and west. Most of these proposals had been discussed secretly for some years among northern politicians in the national reconciliation process. Sadiq al-Mahdi and the Muslim Brotherhood were adamant that real northern agreement depended

upon ending southern autonomy and Islamizing the whole constitution – north and south.

Numeiri had steamrollered all opposition previously and now expected southerners to submit meekly. But he had sown the dragons' teeth, not least by creating a cadre of experienced southern officers in his own army. They wanted freedom for the south and an end to Numeiri, not least for the betrayal of his promises. The inevitable result was the resumption of the southern war. This time the rebels were much better led and armed. Yet it would take two decades to force Khartoum to return to the negotiating table.

The Second War of Independence

Some of the integrated battalions of the First Division of the Southern Command went very reluctantly to garrisons in Darfur. The 105th Battalion at Bor refused to go. The integration process into the new SPAF – the Sudan People's Armed Forces – had produced patchy results. Some southerners felt that their training had not brought them up to the standards of the more experienced professional army. This would be true, however, of any integration of irregulars with professionals, as the Zimbabwean and South African experiences were later to demonstrate. A small minority of officers had been carefully selected and trained in the northern military colleges, but it was a maximum of 13.5 per cent, not the 33 per cent agreed at Addis. The intrinsic military grievances and general anger at Khartoum's cavalier treatment of the Addis deal came to a head in May 1983. The 105th Battalion at Bor, the Jonglei state capital, was already on the point of mutiny. The mood was exacerbated by late pay and food shortages. The Dinka major in command, Kerubino Kuanyin Bol, refused to allow a steamer carrying a company of northern troops to land at the dock in Bor. A week later northern troops from the Armoured Division returned to storm the town. The Bor garrison retreated into the bush, as did troops in Pibor. They and other garrisons crossed into Ethiopia with their weapons.

The Bor mutiny and the Republican Order Number One a month later marked the onset of the new war. Thousands of southern troops retreated to Ethiopia while others further west created camps in isolated bush. Some of the hold-outs in Anya-Nya, who had rejected the Addis agreement, now linked up with the defectors from the integrated army. Most of the new dissidents congregated in the Gambella region of Ethiopia. Besides mutineers from the regular army and Anya-Nya diehards, a third element, the Students Revolutionary Group, led by Pagan Amum Okiech, joined

them. Okiech was later to become secretary general of the Sudan People's Liberation Movement (SPLM).

Who would lead the new southern rebellion? Numeiri had deliberately siphoned off some of the brightest and best of southern officers to promote them into loyalty in the integrated army. The president had specifically intended to use Colonel John Garang, a Twic Dinka, to defuse the Bor mutiny. Unfortunately for Khartoum, Garang was party to the mutiny he was supposed to suppress. If Sadiq al-Mahdi was Numeiri's political nemesis, John Garang became his prime military enemy. The difference was that Garang was by far the most decisive, ruthless and, ultimately, most successful opponent.

Garang was born into a poor family in 1945 in Twic East in Jonglei state. Orphaned at ten, a kindly uncle ensured the studious young man a good secondary education, first in South Sudan and then in Tanzania. He later secured a scholarship in the US at Grinella College in Iowa, and was then offered a further scholarship at the University of California, Berkeley, but decided to return to the University of Dar Es Salaam. While in America he is said to have been impressed by the success of the melting pot of US society and this helped to secure his belief in a united – democratic and non-racial – Sudan. For his later doctorate he studied the ill-fated Jonglei Canal, first proposed by the British in 1907 and finally begun in 1978. By the outbreak of the second southern war, two-thirds of the 223-mile canal had been built. Today one of the giant German earth-moving machines lies rusting as a symbol of one of the biggest development projects killed off by the war.

After his initial studies, Garang made a second, successful, attempt to join the southern rebels six months before the Addis agreement. The first time he had been judged too young to fight. Quickly promoted because of his education, some of the seasoned Anya-Nya commanders resented his lack of battlefield experience. This is what attracted his northern commanders in the new post-Addis army. He rapidly rose from captain to colonel, and was sent on both civilian scholarships in America and training at the US Army's advanced infantry training school at Fort Benning, Georgia. He also lectured in agriculture in Khartoum University, clearly a man of many parts. Garang had become the best educated and trained southerner in the army, and had kept out of the political intrigues in Sudan, or so the northern generals thought.

A month before the Bor mutiny, Colonel Garang was planning the new war and drew up a programme for the formation of the Sudan People's

Liberation Movement. Garang joined his fellow defectors in Ethiopia and set about forming the armed wing of his new SPLM – the SPLA, the Sudan People's Liberation Army. New defectors and hardline existing rebels soon swelled the ranks of the initial 3,000 mutineers. Some commanders still resented Garang's lack of bushfighting skills and were jealous of his education and rapid promotion, courtesy of Khartoum. Nevertheless, his obvious leadership skills won the day, and the question of Sudanese unity versus southern independence was glossed over in the interests of establishing the SPLM, but above all defeating the great betrayer in Khartoum: Numeiri. Moreover, the vital sanctuaries in Ethiopia dictated a diplomatic silence on the question of secession. Under the old emperor and the dour communist leader, Mengistu Haile Mariam, who replaced the Emperor in 1974, the northern Sudanese support for Eritrean secession had made southern secession an awkward subject.

Garang wrote the new SPLM manifesto himself, and it was personally approved by the great Afro-Stalinist, Mengistu. It was radical, clichéd and anti-separatist, to match the dictates of the OAU as well as the Derg. In Garang's manifesto, and the accompanying penal code, it was clear that the army, not the people, was the fundamental source of authority. Garang later toned down the broadcasts on the SPLM radio – gone were the Marxist rants of the initial manifesto. An inclusive, democratic and secular 'New Sudan' would appeal to some northerners. Garang also toned down anti-Muslim rhetoric, although the propaganda was often anti-Arab. He wanted to reach the African Muslims in Darfur and the Nuba Mountains who formed a large part of the northern regular army. Garang, a good strategist, also could not ignore potential backers in the US, although Washington's later support was predicated on the principle of southern independence to weaken the Islamist regime in Khartoum.

Remnants of the old rebel groups, renamed Anya-Nya 2, still resisted inclusion in the SPLA. Some of the resistance also came from Nuer groups, which the northern army started arming to disrupt SPLA supply lines into Ethiopia. In Equatoria, militias also supported Khartoum in operations against what many Equatorians dubbed the 'Dinka army', the SPLA. In May 1984 the Derg had encouraged Garang to order the assassination of the leader of Anya-Nya 2, Gai Tut. Paulino Matip then led the Anya-Nya survivors to western Upper Nile where he did a deal with Numeiri. Salva Kiir, an internal critic of Garang, often said that the first bullets of the SPLA were used to kill separatists. Kiir never broke with his boss; Lam Akol did – on a number of occasions. Akol claimed that from 1984 to 1989 more

SPLA were killed by rival southern militias than in fighting between the SPLA and the northern army.[2]

The first SPLA attacks launched from Ethiopia in 1983 were directed against the Nasir area inside Sudan. Eventually Garang established a permanent base in eastern Equatoria on the Boma Plateau near the Ethiopian border. The SPLA sometimes allied with other Anya-Nya 2 Nuer to hit the Chevron oil sites near Bentiu, in the Nuer heartland. Khartoum had promised the Americans the army was more than capable of defending the oil installations. Three foreign oil workers were killed and a small number injured in a rebel raid on 3 February 1984. Chevron, dissatisfied with Khartoum's response, pulled out of the oilfield. The US would later impose sanctions on US oil exploration, but the original Chevron concession proved to be the heart of the Sudanese oil bonanza, which benefited the Chinese and Malaysians (and a few Sudanese). The SPLA had previously captured seven French workers on the Jonglei Canal project. Garang had a personal animus about the canal, but attacks on the few big economic projects in the south, while admittedly embarrassing Khartoum, were bound to undermine economic development in a south that had precious little infrastructure or employment. In the next two decades of fighting, it was often hard to make economic sense of the north-south attrition, and even less when fighting spread to the east and west of the massive but fragile country.

Numeiri's endgame

Throughout most of his military career Numeiri had been a conventionally observant Muslim, not distinguished by Islamic zeal. In fact, the whisky-drinking and cigar-chomping leader had publicly preached a secular state and often cracked down on the Brotherhood. Gradually, he moved towards a more exaggerated belief in his personal Islamist mission. He interpreted his escape from a number of coups and assassinations as divine intervention. He also believed he had survived various heart operations as a sign of Allah's munificence (though cynics whispered that it had more to do with the quality of his American doctors and their hospitals). He started pronouncing on religious matters and published a book in 1980 on spiritual reform. He enacted secret Brotherhood plans, devised by al-Turabi, by announcing in September 1983 that *sharia* law would apply in all of Sudan, including the south. Many southerners regarded the September Laws as a declaration of war, although the rural *nas* (ordinary people) in the north welcomed the harsh laws that would clear out what they perceived as the fleshpots in Khartoum. Numeiri finally declared himself a religious leader with the title of Imam.

The *hudud* punishments such as amputations for theft and stoning for adultery were not only enforced, but publicized. Ministers were compelled to attend public executions and amputations. Even the hard-line attorney general, Hassan al-Turabi, fainted at the sight of his first amputation. Radio and television reported the punishments in gruesome detail. Conservative northerners may have had some sympathy with the crackdown on law and order and would tell foreigners that *sharia* meant that the city streets were the safest in Africa, which was probably true. The law-and-order argument was a little undermined by Numeiri's release of over 10,000 common criminals from Khartoum's Kober Prison. The president claimed that he had acted mercifully in the same manner as the Prophet, who had forgiven the people of Mecca. That unsubtle comparison between himself and Mohammed was enough to make ardent members of the Brotherhood a little concerned about their president's mental state. They wondered if absolute power or illness had turned his brain or whether he was genuinely a late convert to radical Islamism. Many ordinary Sudanese were suffering acutely from the decline in the economy. Now they could not seek psychic balm in their traditional beer. Early travellers in Sudan always marvelled at the joyous and copious rural consumption of vast quantities of traditional *marissa* alcohol, even in religious heartlands such as Darfur. And if they could enjoy Western spirits, they would usually extol its medicinal value. Whisky became the favourite of many middle-class professionals in the capital. Now thousands of gallons of best Scotch were poured into the Nile (prompting lots of local jokes about drunken fish) or crushed by bulldozers; all the stunts were heavily publicized. Whether the politicians and civil servants could now make better decisions while being continuously stone-cold sober was yet to be proven. The well-to-do kept their whisky hidden even more carefully and were much more selective about very good friends with whom they could share their Western 'medicine'.

Numeiri started indulging in long religious rants on the radio, blaming everyone but himself for the economic meltdown. He attacked 'profiteers' in foul-mouthed tirades which conservative Sudanese radio listeners were not used to hearing from an imam. He continued to compare himself with the Prophet so that accusations of heresy and insanity grew apace. Any opposition was crushed, martial law and states of emergency were imposed and emergency courts handed out fines and floggings as well as executions and amputations.

The reign of terror reached a height with the execution of Mahmud Muhammad Taha, the leader of a small mild-mannered group called the

Republican Brothers. There were also Sisters, because Taha advocated women's equality as well as religious reforms based on his *Sufi* ideals. Most people in the three towns treated the Brothers' polite distribution of leaflets advocating peaceful co-existence, not just between north and south but with the Israelis, with tolerance and occasional amusement. But they were never seen as any kind of threat. It is true that Taha had been accused of religious sedition as far back as the 1960s, but in the 1980s and aged 76 he was generally considered as a gentle intellectual with odd views. Taha published an innocuous leaflet in December 1984 that criticized the imposition of *sharia* law in the south and called for the return of civil liberties throughout the country. Numeiri decided to make an example of Taha. He and four of his followers were rapidly convicted of apostasy. By this stage the president appeared to believe he had a hot line to God, and promptly hanged Taha, while allowing his four followers to recant, and live. Taha's body was dumped in the desert and a traditional burial was denied.

The Muslim Brotherhood had grown much stronger under Numeiri's religious mania, mainly because of Hassan al-Turabi's organizational genius, though it was a tragedy that his legal training and position as attorney general did not restrain the presidential reign of injustice and terror. In fact, Numeiri's perversion of Islam had caused grave disquiet among the Brothers, but al-Turabi had enforced a rigid discipline upon them. The time was not yet right to strike; they were told. Slowly, they built up their influence – modelled on Leninist cells – in the professions, schools and universities, but above all in the army. They also constructed an extensive financial network in the Gulf and among Sudanese in exile. Wealthy Sudanese businessmen abroad could now believe that they could serve Allah and their commercial interests, not least via the new Islamic banks.

Despite banking reforms, the Sudanese economy continued to deteriorate and ensuing government austerity led to strikes. A railway strike was called treasonable and Numeiri's inevitable response was to deploy the army to crush the industrial action. It was more difficult to send in the army to stamp out strikes by judges, doctors, engineers and university professors. Foreign debt mounted and debt servicing became unmanageable. Inflation soared. World Bank measures led inevitably to cuts in subsidies to basic commodities. Nature intervened as the world became aware of the 'biblical' famine in Ethiopia in 1984, but less was made internationally of the drought in Sudan, especially Darfur. Tens of thousands of starving westerners descended on the three towns to live in shanty towns, in defiance of the army trucking back desperate people to Darfur. By 1985 tens of thousands of

Darfuris had perished of starvation. Western charities went in to help, but also pointed out that the big mechanized farms along the Nile were harvesting grain, but not sending it to Darfur. Numeiri seemed unmoved by the drought and famine in his own land.

Numeiri had garlanded himself with extra titles from field marshal to Supreme Commander to Imam, and he was both prime minister and president. He had restarted the war in the south and bankrupted the economy, while alienating nearly all his erstwhile political and religious supporters. Only the ever-patient Muslim Brotherhood, burrowing deeply into all strata of society, remained as his ally. In March 1985 he finally turned on them and blamed the Brothers for all the country's woes. Hassan al-Turabi and other prominent Brothers were arrested for religious plotting. Hundreds of rank-and-file Brothers were also incarcerated. Numeiri installed another layer of kangaroo courts that meted out even more public floggings, amputations and executions.

By April 1985 Numeiri seemed unaware of the seething state of the nation. He flew off to Washington to see his doctors and to beg for more loans from the World Bank and the USA. He would not have left the country if he had had the wit to realize how fragile his position was. A general strike on 4 April 1985 paralyzed the capital. The president had just one remaining ally, the army, but many senior officers were sickened by the abasement of Sudanese society. The minister of defence, Major General Abdel Rahman Swar al-Dahab, announced on national radio that the army would respect the people's wishes and depose the president, but they would stay in power for the time being. Numeiri tried to fly back to Khartoum. His plane was diverted to Cairo, however. His military friend, President Hosni Mubarak, provided him with a luxurious villa in a plush suburb where he stayed for the next fourteen years. Sudanese took to the streets to rejoice at the fall of the military dictator, as they had done before in 1964. History was repeating itself again, as farce. Or perhaps they had short memories, for when Numeiri returned to Sudan, in May 1999, he received a rapturous welcome. The next year he ran again for president against the incumbent, Omar al-Bashir, but secured less than ten per cent of the poll. 'The people still love me, but the polls were rigged,' he must have told himself.

The military were in power once more; they had simply changed generals as head of state. They had already tried two rounds of rule by generalissimo and the politicians had essayed two periods of chaotic civilian governance. And the southern war was raging. So what next? Major General al-Dahab did try to bring in civilians. They met at the staff club of the University of

Khartoum to sort out a joint front for the new regime. They called themselves the 'modern forces', but regressed to ancient feuds. The military, traditionally suspicious of indecisive politicians, moved quickly to set up their own Transitional Military Council. It was made up of different factions, as ever, but the council consisted mainly off senior officers in command of elite units that could rapidly control the three towns, if necessary. The Military Council governed by a state of emergency, but the generals did release many political prisoners in Numeiri's jails. They also hollowed out a traditional enemy, the hated state security service. A few prominent cronies of the ousted president were put on trial. One proved embarrassing for important intelligence links: Vice President Omar Muhammad al-Tayib, who had run the state security organization. The details of his televised show trial annoyed the Central Intelligence Agency and Mossad because al-Tayib had been a central player in Operation MOSES. Organized from the US embassy in Khartoum, nearly 8,000 Falasha Jews were airlifted from Sudanese camps, where they had fled persecution and famine in Ethiopia. The Israelis uncharacteristically leaked the semi-covert operation in January 1985.This prompted Arab states to influence Sudan to stop the mercy mission. Later, two other CIA/Mossad operations (JOSHUA and SOLOMON) rescued the thousands of remaining Falasha still trapped in the Horn. Al-Tayib had reputedly been paid a few million US dollars to assist his foreign intelligence friends. That might have covered his massive court fine, but not his sentence of life imprisonment.

The Military Council ruled in conjunction with a toothless provisional council of ministers, which included some southerners, but not John Garang who refused to travel to Khartoum. He correctly assessed the situation as 'Numeirism without Numeiri'. The civilians and military occasionally met together to discuss the possibility of a new constitution, *sharia* law and southern autonomy. Unsurprisingly, no resolution was achieved, not least because the interim leaders knew that a new election was to be held. It was easier for any politician to pass the buck and postpone such troublesome decisions.

Getting the balance right between keeping the men in uniform well paid and well-fed but apolitical has often been tricky in African and Middle Eastern armies. Numeiri had managed to demoralize his entire army and starve them of resources in the last years of his regime. With the onset of the renewed southern offensive by the SPLA, the regular army of around 60,000 had been reduced to a defensive strategy of trying to hold and re-supply garrisons in the main southern towns. The SPLA boasted perhaps as

many as 10,000 trained full-time insurgents, with perhaps double that number either in training or in part-time militia roles. The collapse of the hated Numeiri regime had been a big boost to the SPLM. Although some southerners took part in the transitional government in Khartoum, the fact that Garang remained aloof burnished his credentials in the south. It also made him more important for Khartoum to court him, as the shift in the military balance of power in the south suggested that a political deal was required. Secret meetings were held in Ethiopia at the start of 1986. But talk of a government of national unity inevitably foundered on hard-line attitudes among the political parties, especially the Brotherhood. And some senior army officers were not inclined to rescind Numeiri's policy on *sharia* law. The war still had a long time to run before attrition encouraged northern compromise.

Return to civilian rule, once again

One positive sign was a promise kept by Major General al-Dahab, the transitional supremo. He agreed to put the clock back to the electoral system of the 1960s. And the same disunited coalition resulted, although the Brotherhood's front party, the NIF, did unexpectedly well. Their underground planning had paid off, although they were still biding their time before trying to seize power. Despite the security situation in the south, some electioneering took place there, often in the urban areas, but the southern parties had little influence in the revived assembly in Khartoum. The new government was headed by Sadiq al-Mahdi, the long-term leader of the Umma party, which had taken ninety-nine seats.

Al-Mahdi returned as prime minister in May 1986. He faced the same hoary problems – except most of them had got much worse, especially the war. He headed another coalition, but desperate optimists believed that he was the civilian leader who could finally lead Sudan to the promised land. After all, he was a highly educated Oxbridge man who also had spiritual clout as the descendant of the Mahdi, and the religious head of the *Ansar*, as well as boss of the Umma party. Therefore, as a politician and imam, he had the religious authority and intellect to curb the excesses of the Islamic fundamentalists, led by Hassan al-Turabi, who did not join al-Mahdi's coalition. Moreover, since al-Turabi was his brother-in-law, perhaps the family connection might ease relations with the Brotherhood. Yet much of the political infighting in Sudan's elite had long been within family relationships, so kinship was probably the least persuasive element in the optimism. Al-Madhi's previous tenure as premier, twenty years before, had

been brief. Now, matured by exile, a death sentence (in absentia) and numerous political battles, he had the chance to prove his worth. He started well with visionary speeches about ending the hated September Laws that would be a precursor to a southern peace deal. He would be a peacemaker, but as reinsurance he promised also to reform and re-equip an army that was taking a real pasting from the SPLA. Of the economic collapse, he said little, though many hoped that peace would bring its own financial dividends.

Except for refurbishing al-Mahdi family properties and lands seized under Numeiri, the premier showed little energy after his first bout of speechifying. He seemed incapable of acting on his declared vision. His three years in power were marked above all by indecision. As the war worsened, northerners became embroiled in the everlasting crisis of Arab identity versus pan-Sudan unity. The influx of foreign Islamists added to this renewed sense of Arabism, as did increased support from Iraq, Saudi Arabia and Jordan, and even Libya; Gaddafi was always keen to promote his version of Pan-Arabism, especially now that his former protégé, al-Mahdi, was in power.

The kaleidoscope of changing political alliances – most of them based on pettiness not principles – defies concise description. Perhaps the most perplexing was al-Madhi's decision to appoint his brother-in-law as attorney general once more, to reform the September Laws that al-Turabi had originally devised for Numeiri. Since the Brothers had made it clear that there could be 'no replacement for Allah's laws', little reform could be expected. More promising were the sporadic talks in Addis with the SPLM and, in November 1988, a temporary ceasefire was agreed – one of many in the north-south saga. Divisions over a deal with the SPLM helped to split the al-Mahdi-led coalition. In February 1989 al-Mahdi managed to patch together another coalition, this time with his brother-in-law, finally bringing in the National Islamic Front. Senior officers in the army, including the minister of defence, resigned, partly because the NIF was hostile to a peace deal. Al-Turabi was promoted to deputy prime minister and minister of foreign affairs. Other Brothers in the NIF took over key security portfolios such as the ministry of the interior. Behind the scenes they also built up their financial interests in the Islamic banking system. In 1983 the Al-Shamal Islamic bank had been set up in Khartoum; this had close links with the Saudi investments in the Faisal Islamic Bank of Sudan. The Brotherhood was inching towards supreme power. The work was not yet complete, however, not least in the number and strength of Muslim Brotherhood cells in the army. The commander of the army and 150 senior officers sent a

written ultimatum to the prime minister that he should form a national government to deal with the SPLM and reverse the plummeting economic decline. Nearly all the political parties (except the NIF) and many professional bodies and unions signed a 'National Declaration of Peace'. They wanted a national unity government, but – as ever – unity was *the* elusive Sudanese ingredient.

Sadiq's war

Sadiq al-Mahdi was failing on all fronts. Since the start of his administration he had been committed to resolving the southern crisis. He spent a whole day talking to John Garang at the OAU summit in Addis in July 1986, although their long discussion was not fruitful. Nevertheless, a bigger north-south dialogue took place in the following month, based on the Koka Dam Agreement of the previous March. This seemed to be producing results, but then in August 1986 a Shilluk SPLA unit deployed a shoulder-launched SAM-7 to shoot down a Sudan Airways Fokker Friendship on a scheduled domestic flight from Khartoum to Malakal, killing all the sixty passengers and crew on board. Al-Madhi was given intercepted SPLA signals information that the Shilluk commander had gloated about the shooting. The prime minister publicly decried the SPLA as terrorists and sent militias in the pay of the north to destroy a wide swathe of Shilluk villages. This was almost a replay of what happened in Rhodesia in 1978. A SAM-7 was fired at a civilian Viscount aircraft flying on a scheduled flight from the holiday resort of Kariba to the capital, Salisbury. The leader of the insurgents responsible, Joshua Nkomo, was perceived to have laughed in a radio interview about the incident. The Rhodesian prime minister, Ian Smith, broke off promising secret peace talks with Nkomo, calling him a terrorist. Instead Smith ordered a series of reprisal raids on Nkomo's bases around Lusaka, Zambia. In both cases a shoulder-launched Russian Strela missile ended possible peace talks in the two African states.

When al-Mahdi came to power his influence in the professional army was weak. The rival *Khatmiyya* sect was stronger among the officer corps and the Muslim Brotherhood had already made many inroads; hence his tendency to rely on surrogate forces, especially the pro-*Ansar* militias. The militia strategy was not new, though it was accelerated under al-Mahdi. Over three years the alternative strategy not only failed, but caused numerous human rights' abuses and it alienated the regular army.

More immediately, Garang's advance was partially thwarted by Khartoum's use of southern tribal militias and Anya-Nya 2 holdouts who

had been fighting the SPLA, partially because of lingering feuds or intrinsic ethnic differences. A new guerrilla 'hearts and mind' campaign began to have some success, especially as the SPLA's more disciplined units looted from the villages far less. More and more peasants could see that the insurgents were confining the northern army to the towns and thus the peasantry were less harassed by the army. And, then in a virtuous cycle, the army's reprisal raids on villages accused of supporting guerrillas played into SPLA hands. Meanwhile, Khartoum had to try to administer the south. A Council of the South failed to organize aid for the mass of refugees, often sick and starving, in the garrison towns held by the army.

Although Khartoum's propaganda described the SPLA as mere pawns of their Ethiopian hosts and Cuban instructors, a new patriotism began to infuse the southern rebellion. More and more volunteers poured into the insurgent training camps, including youngsters. The 'child-soldiers', who were plentiful, played into northern propaganda, while disturbing genteel supporters in the liberal salons in Europe and America. Training, weaponry and discipline improved as did morale as the guerrillas scored more and more victories against a zombie-like administration in Khartoum. In November 1987 the guerrillas captured the small town of Kurmuk, near the Ethiopian border. It was over 450 miles from the capital, but the nearby dam provided most of Khartoum's electricity. For its own short-term ends the government encouraged a panic in the three towns and urged the citizenry to arm themselves against a barbarian invasion. The army soon recaptured Kurmuk, but Sadiq al-Mahdi had shot himself in the foot in propaganda terms. Khartoum was not threatened by a minor temporary tactical guerrilla success on the Ethiopian border, adjacent to their sanctuaries, but the panic had brought home to northerners how nervous the government was about containing the southern advance.

Khartoum faced more serious reverses when the SPLA captured and held towns such as Pibor and Jokau. Assaults were also made against crucial economic targets, such as Bentiu's oil installations, and then the oil depot at Malakal airport was blown up. The northern army was on its knees and the prime minster resorted to a large-scale deployment of the *murahiliin*, for example the deployment of Arab militias in the Bahr al-Ghazal region. The breakdown of civilian administration and the spread of famine and drought had created a restless, and reckless, army of young unemployed and leaderless men. For generations, the Baqqara coalition of Arab tribes (including the Rezeigat and the Missiriya) had fought the southern Dinka tribes, including the Twic, Malwal and Ngok, over grazing rights and water.

The contest was often vicious and usually equally balanced; periods of 'blooding' of tribal youths were often interrupted by agreements between headmen and chiefs. Sometimes the central government had interceded via the army and police. The ancient disputes had often been settled by elders who knew the customary law and rights. Then the economic collapse of the Numeiri years was accompanied by the spread of drought from Darfur and Kordofan down into the Bahr al-Ghazal by the mid-1980s. With the traditional cattle wealth often devastated by drought, the government now handed out automatic weapons to angry and desperate Baqqara militias. Many Dinka had been driven north by the southern war and famine. It was not just a case of pushing south over the unmarked border, militias started to drive out settled Dinka communities in the north. In March 1987 thousands of Dinka were massacred in Darfur after Rezeigat militia attacked a Dinka church at Ed Daein, in east Darfur, where the militia had wrongly been informed that solar panels on the church were 'secret SPLA communication devices'. Hundreds of Dinka were then put by police on a train bound for Nyala, but it was intercepted and burned by Arab militiamen. Khartoum denied any such massacres had taken place, the first of many such denials about tragedies in Darfur.

Massive cattle rustling raids then ensued in Bahr al-Ghazal. Thousands of Dinka sought SPLA protection, as guerrilla units moved north into Kordofan to retrieve some of the cattle and punish joint army and militia units. Khartoum's answer was to release bigger arsenals of weapons to the Baqqara to repel SPLA advances in early 1987. The SPLA pushed deeper into the north, nonetheless. The so-called Volcano battalion occupied parts of the Nuba Mountains. In Wau, the capital of western Bahr al-Ghazal, the government forces struggled on to hold their besieged garrison. Some of the government-supplied militia units came over to the SPLA. Khartoum rushed in extra money, supplies and weapons to keep them loyal. The Bul Nuer militia's loyalty was crucial, for example, in the defence of the Bentiu oilfields.

The SPLA's successes were partly the result of disciplined command and control, which came at a price. Garang was criticized for a Stalinist style of leadership. Even his old comrade, now a major general, Kerubino Kuanyin Bol, with whom Garang had plotted the Bor mutiny which began the second war, was arrested and imprisoned. The SPLA did not have it all its own way. It was caught off-balance by an unusually successful spring 1988 offensive by the army. Several large SPLA units were destroyed in the Upper Nile and, then farther south, the army recaptured the symbolic town of Torit. To

augment its unexpectedly successful counter-offensive in the deep south, Sadiq al-Mahdi decided to again unleash his Arab militias in the border areas against the Dinka. No quarter was given – the men were killed and women raped and sometimes the children were enslaved as servants or labourers for the Missiriya nomadic Arab tribes. Schools and clinics were put to the torch and wells polluted with the dead bodies. This form of tribal blitzkrieg set the pattern for the future so-called *Janjaweed* raids in Darfur after 2003. The militias' rapacity of the late 1980s across the southern border was often so shocking that the regular army on occasion took action against them, to protect the Dinka and in the Nuba Mountains, even though the militias were acting under the (very loose) direction of Khartoum.

War, famine, drought and now rinderpest were laying waste the south. Tens of thousands starved, even in the besieged army garrison towns; the SPLA mined roads and blew up bridges to use food as a weapon of war. Two million southerners took refuge in the north, many around Khartoum. Apologists for Khartoum tried to argue that the government did not practise 'genocide' against the southerners (although that definition might have applied to militia raids on the Dinka) because southerners fled *towards* the capital, unlike the German Jews who ran away *from* the Nazi capital of Berlin. It was not an entirely convincing argument, not least for the tens of thousands who sought refuge in Ethiopia or in the camps in Uganda and Kenya. In late 1988 the drought was broken by unusually heavy rains. Around the three towns, over 100,000 homes were inundated and that meant that the insufficient aid for the south was redirected for reconstruction in the north. November 1988 also brought another, temporary, ceasefire.

In the beginning of 1989 a fresh SPLA offensive took the important Upper Nile town of Nasir, after heavy fighting. In February the politically significant town of Torit was recaptured by the rebels. More and more southern towns fell in March and April. Over the border in the Nuba Mountains, the SPLA overwhelmed combined army and militia units. The SPLA now controlled large swathes of the south, waiting for the remaining government garrisons to fall like ripe plums. Juba was under siege, relieved only by air. But the carcasses of cargo planes that littered the end of the runway suggested that the capital too could fall. The northern militia raids dwindled as they now were more inclined to hug army bases for protection. By the summer of 1989 the Sudanese army was on its knees. The SPLA, under the tyrannical but highly effective leadership of John Garang, was clearly in the ascendancy. Garang now toured Washington and London as a conquering hero, while Sadiq al-Mahdi appeared to be cowering in

Khartoum. He was clearly losing on the battlefield. Would his Arab allies come to his rescue?

At the start of his period in power, al-Mahdi had to pay back his IOUs to Gaddafi. Libyan dissidents in Khartoum were rounded up and sent to Tripoli to an unpleasant welcome home. Gaddafi had the oil money and manic propensity of backing nearly every horse in every race — he financed, for example, nearly all the different sides in Chad's endless civil war, often at same time. At one stage, under Numeiri's rule, Gaddafi had been sending money and arms to John Garang. That stopped, but in return Gaddafi wanted a free hand in Darfur, which he planned to absorb into his domain. Sadiq al-Mahdi could never publicly agree to that and also remain in power, so typically he prevaricated and turned a blind eye to Libyan meddling in Darfur. The Islamic Legion and Baqqara militias, armed and funded by Gaddafi, swaggered around Darfur's few urban areas. Gaddafi was more concerned with operations across the border into Chad. When some of Gaddafi's proxy forces were defeated in Chad, they flooded into Darfur. In the Kufra oasis, Gaddafi trained his legion and various bands of pan-Arabic mercenaries. The indigenous Fur peoples formed their own army to fight back against the Arab nomadic militias and their Libyan allies. The Fur across the border in Chad supplied their tribal brethren with arms to defend themselves. The Rezeigat militias soon entered the fray in what became known as 'the war of tribes'. Sadiq al-Mahdi supported his old tribal allies from the days of the Mahdi; in fact some of the tribal conflicts went back as far as a century *before* the Mahdi. The Fur insurgents were crushed. Khartoum was too distracted to think about another region that was embroiled in internal war, stirred up by Libya and Chad. The chaos was to cause an even bigger war – internationalized by the media and US film stars – after 2003.

Relations were as fraught in the east as they were in the west, although Sudanese politicians, north and south, used to meet in Addis Ababa; often under the umbrella of the OAU. The Mengistu regime regarded al-Mahdi's government as weak as well as hostile. Al-Mahdi often castigated the Ethiopians for arming and hosting the SPLA, in their ambition to spread a communist government to the south, and even to the whole of Sudan. When southern forces crossed from Ethiopia to capture Kurmuk, all-out war between the two states loomed. Khartoum was aiding its allies, the Eritreans and Tigrayans, in their war with Mengistu's regime, while Mengistu's sinister Derg apparatus succoured its ally, the SPLM. The secessionist wars in Ethiopia were reaching a peak, which complicated calculations in the

stop

whole region. The SPLM was officially committed to Sudanese unity at this stage and opposed Eritrean war aims. Khartoum provided political support and asylum for the exiles of the anti-Mengistu wars, but they could not match the supply of weapons and instructors that the SPLA received from Addis. The SPLA had other sources of supply and many of their operations were far removed from their Ethiopian sanctuaries, but the Mengistu connection was still very valuable.

So where was al-Mahdi to turn? Saudi Arabia had been open-handed with oil credits and loans. The Gulf states were generous too after the fall of Numeiri. The Americans were lukewarm. Washington had been annoyed by Khartoum's disclosures of CIA entanglements in Operation MOSES during the long-running al-Tayib trial. Moreover, US embassy officials in Khartoum had recently been attacked by Palestinian radicals; in 1973 the US ambassador had been assassinated in Khartoum by Yasser Arafat's men. The American embassy was drastically reduced in size and, although al-Mahdi visited Washington during his premiership, the US remained distant. The Saudis were still helpful, but Khartoum needed US and World Bank money to save the economy. Adnan Khashoggi's dodgy deals had been cancelled and Khartoum also backtracked on a West German industrialist who was going to pay to dump nuclear waste in the northern desert. The war in the south was costing perhaps as much as $2 million per day and the debts on massive new loans from the Saudis and the Gulf, as well as longstanding loans to Moscow for weapons, could not be serviced. Soap and bread were often in short supply as was electricity. Inflation was around 80 per cent per annum. Strikes and protests were almost daily crises. Food shortages were becoming critical especially in the south. In April 1989 Operation LIFELINE SUDAN was set up. This was an agreement between Khartoum, the SPLA, UN and NGOs to co-ordinate (sometimes) to supply food and medical aid to the separate areas controlled by the government and rebels. This was possibly the world's first humanitarian programme to assist civilians on both sides of a civil war in a sovereign state. It caused a shift from the tactic of using starvation for military purposes, although most of the southern aid was purloined by the SPLA. The OLS saved many tens of thousands of lives, but such extensive foreign feeding programmes for north as well as the south also indicated the extent of the administrative collapse of the country.

What of the oldest ally, Egypt? Cairo adamantly refused to extradite Numeiri when the new government requested it in 1986. Field Marshal Hosni Mubarak would not consider giving up Field Marshal Numeiri, least

of all to a man who was the living embodiment of the old Mahdist threat to Egypt. Then al-Mahdi compounded Sudan-Egyptian tensions by promoting al-Turabi to be deputy prime minister and, worse, foreign minister to deal with Cairo. Mubarak hated the Brotherhood and al-Turabi was its leading light in Khartoum. The government also had poor relations with the Gulf states, where al-Mahdi's rival sect, the *Khatmiyya,* had entrenched religious ties. Except for the Saudis and Iraq, Sadiq al-Mahdi had managed to fall out with all his neighbours and to antagonize nearly all domestic power-brokers in the north, while waging a full-scale, and losing, war in the south. Some record, not least for a man who entered power as a purported peacemaker to inspire national salvation. The disaster was partly of his own making, but he had a devil on his shoulder, his own brother-in-law. It was al-Turabi's plan to reap the revolutionary whirlwind and to use it to blow away what he perceived as the chaff in Khartoum.

Egypt would not save Sadiq. On the contrary, it was rumoured in spring 1989 that the Egyptian army would restore Numeiri. The head of Egyptian military intelligence confessed: 'One day we will have to go back and re-conquer that country because these people are such a mess and they are incapable of governing themselves.'[3]

Things were so bad that the parliamentarians in the Constituent Assembly finally took notice. They demanded the prime minister's resignation; before he did resign he should end the state of emergency and freeze the September Laws he had promised to repeal right at the start of his premiership, but somehow never got around to doing. In June al-Mahdi called for a permanent ceasefire in the south and he initialled the suspension of the September Laws, to be endorsed by the assembly later. Desperate for a political breakthrough, al-Mahdi had reluctantly agreed, some months before, to a peace conference with the southern rebels. It was due to take place at the end of June 1989. It didn't happen. In some interpretations, the army and the NIF decided on a bold pre-emptive move to prevent what they saw as a possible surrender to the south.

History repeated itself once more. On the night of 30 June 1989, the army — led by Brigadier Omar al-Bashir — swept away the house of cards that Sadiq al-Mahdi had erected. The Brotherhood and the National Islamic Front were hovering in the wings. How was the latest round of the military versus the now-dominant Islamists going to play out? Would it be a repeat of the Egyptian experience? It all depended on the new military leader, the one who had led the revolt. He seemed to have come from nowhere.

Chapter 4

The Makings of a President

Who was this man who suddenly burst on to the national and international stage in the 1989 coup? Where did he come from? What made him tick?

Omar Hassan Ahmed al-Bashir was born on 1 January 1944 into humble farming stock in Hosh Bannaga, 100 miles north of Khartoum. The village is located on the outskirts of Shendi, on the east bank of the Nile, in the River Nile state. Shendi was once the main marketplace of the country before Khartoum existed, and it was also the centre of the slave trade. The town is about thirty miles south-west of Meroë, the capital of the ancient Kushite kingdom. Here you can walk alone, untroubled by Sudan's rare foreign tourists, and feel you are discovering, almost for the first time, the ancient pyramids. The hundred pyramids may be much smaller than their Egyptian counterparts and many of the summits were lopped off by a nineteenth-century Italian tomb robber, but it is still today an atmospheric and compelling location.

In 1944 Hosh Bannaga was a quiet backwater. Omar's father was a smalltime dairy farmer. Omar belonged to the Al-Bedairyya al-Dahmashyaa Bedouin group, part of the larger Ja'yyalin coalition of tribes which dominated the middle northern section of Sudan. Many of the future politicians of Sudan would come from this tribal coalition, based in the town of Shendi.

Omar's birth appeared then as an inauspicious event. True, on the same day, another future Muslim politician was born: Zafarullah Khan Jamali, later to become the thirteenth prime minister of Pakistan. Yet, in 1944, neither Sudan nor Pakistan existed as independent states. Of perhaps more relevance to Islamic historians is that, on 1 January in AD 630, the Prophet Mohammed set out towards Mecca, which he would seize without bloodshed. The boy, 'Omeira' as he was nicknamed – Little Omar, would seize the Sudanese capital, also without bloodshed, forty-five years later.

If January 1944 was insignificant in local Sudanese affairs, it was a pivotal month in the world war outside Omar al-Bashir's village. In Europe, the Red Army was massing to smash its way into Nazi-occupied Poland and

to occupy the Baltic states. The Americans were fighting hard in southern Italy; on 1 January General Mark Clark replaced the famous General George Patton as commander of the Seventh Army. Patton had been sidelined because of his infamous slapping and berating of two of his men suffering from what is now called post-traumatic stress disorder, though Patton was also deployed in a deception operation, FORTITUDE, to mislead Hitler as to the location of the D-Day landings in France. The British on that day were planning experiments with the first use of helicopters in naval warfare. From the broader imperial perspective, the Sudanese Defence Force, founded in 1925, had recruited members of the al-Bashir family. Four of the future president's uncles had fought alongside British forces in the North African and Abyssinian campaigns, including one who had distinguished himself at El Alamein. The Sudanese volunteers were initially assured by the British, 'The Italians are bad – they are going to rape your wives.'[1]

Omar went to the local primary school, but had to move in 1953 when his father Hassan took his whole family of four boys and four girls to a new village, Sarasir, 100 miles south of Khartoum, to seek work in the booming cotton industry. Decades before, the British had set up an extensive, well-organized and well-irrigated scheme. Despite his pronounced northern accent, Hassan settled in well in the village of about 2,000 souls. The houses were made of mud bricks. The residents were not indulged with electricity or running water. The only radios were to be found playing loudly in the shops. Some of the mud-brick houses had survived when I visited the village to talk to the president's cousins who still live there, albeit now in modest, but brick and breeze-block, houses with outside loos.

Treated with great hospitality I listened to endless stories of the country's ruler as a young boy. Some elderly relatives started jumping around on one leg, like demented Long John Silvers, because I struggled with the Arabic translation of the game of hopscotch. As youngsters they also played *tiwa*, a ball game, and marbles. Of course, the young Omar was described as a paragon. 'Very obedient to his father,' one cousin said proudly. Well, he would say that to a writer accompanied by the president's men, wouldn't he? Eventually, I got to a bit of minor sinning. Omar was described as feisty and pugnacious, active in organizing the local boys to take on the next village's youths with catapults and sticks. Some evenings they would swim in the irrigation canals built by the British, even though they were not supposed to.

The young Omar was a keen footballer. 'Always in defence,' a cousin said. 'That's why he went into the army.' The pun seemed to work in both English and Arabic. A love of football stayed with Omar al-Bashir. When

he later moved to Khartoum North, he was an avid supporter of Al-Hilal, one of Sudan's most successful clubs, though in his later political life he had to be seen to support the national team.

President al-Bashir's stepson, Mohamed, told me an instructive story when I visited the compact but very well-tended presidential farm in North Khartoum in early 2014. A few years before, when the president was more agile, the national team had finished playing, and the president went on to the pitch and took a penalty shot against the professional goalkeeper, who saved the ball from the net. The referee gave the goalie a yellow card. The president took another penalty. The goalkeeper rather obviously jumped the wrong way, and the ball went in. The whole stadium erupted with applause and laughter.

The president has a reputation, in the West, for being very authoritarian and very anti-Western. Normally, his advisers encourage him to do interviews in Arabic only, though Omar al-Bashir speaks good English. I was interested in his attitude to his early British colonial roots. On a number of occasions he spoke very fondly of one of the three British teachers, a Mr Collier, a Scot who taught maths at the boys-only school in Sarasir. Despite the large classes of forty boys, they received a sound education. Omar's ebullient brother, Mohamed Hassan, two years junior, also spoke with warmth of the same Mr Collier. Indeed, Hassan kept singing a rather tuneless version of *Auld Lang Syne* to entertain me.

Another brother, Sidiq, has lived quietly in England for over thirty years, working as a medical practitioner. Many of the president's relatives and political cronies lived, studied and worked in the UK. When I was arrested for the first time in Sudan, in 1996, coincidentally by the Minister of Justice himself, the first question that came to my mind was not 'Why am I being arrested?' but what Oxbridge college the pukka minister had attended. I often scratched under the apparently rabidly Islamist and xenophobic exterior and soon discovered a genuine anglophilia. And it was more than mere politeness to a British guest (or arrested journalist). The English (language) colonial heritage ran deep, in the ruling party, and in their children, who rushed to study in the UK or USA.

* * * *

The president's mother, Hadiya, frail in her eighty-eighth year when I visited her in the presidential compound, was more frank about British influence. She recalled how the district commissioners used to speak harshly

sometimes to workers in the cotton estate. 'They used to boss the local farmers about,' she said. She added that the British provided no medical care. 'We used traditional ways and herbs.'

In his teens, she said, her son's ambition was to be a 'military fighter pilot'. 'But I didn't want him to fight. I used to lose sleep when he was fighting in the south. I begged him not to serve in the south.' She added: 'I didn't want him to be president. I was scared for his life.' She confessed that she now wanted her son to retire. 'He has done enough for the country.' And she complained about living in a goldfish bowl; she dearly wanted to return to the traditional family home in Khartoum North. 'He is tired, but the people won't let him retire. They believe if he goes, it will be a big mess. But I think he has done enough.'

Hadiya obviously preferred to talk about her son when he was very young. Clearly, he was a right little tearaway. 'He was quick – as a child he was hard to catch. And he used to quarrel with his older brother, Ahmed. Ahmed used to bully him or at least try to.' She told me that she used to get Omar to learn poetry nearly every day, and then quoted one of her favourite poems. She also recalled that when Omar was six or seven, he refused to accept a beating from his mother. He grabbed the stick she was using, and starting hitting his mother instead. Infuriated, Hadiya retrieved the stick and resumed the beating, only to be physically restrained by her own mother, who berated her loudly for punishing young Omar.

She returned to her theme that she wanted her son to give up the presidency. 'Then I can go back and live in the family home [in Khartoum North]. Here in the presidential compound we live like strangers.' Though she did concede that her son visited her nearly every day, when he was in the country. 'That is his best quality,' she said. 'He is very kind to me and the whole family.'

There is no doubt that the tough military and political leader has a real soft spot: his family. He married his cousin, Fatima Khalid, but — like Numeiri — produced no children. The president's PR people tend to spin this with clichés about his being married to the whole country. 'I am content with my destiny given by God,' the president would say to friends. But the desire for children may have been a partial motivation, in 2003, when the president took a younger second wife, a widow called Widad Babiker Omer. She had four children, one boy and three girls. The youngest girl, Amna, was obviously doted on by the president. He clearly loved her and indulged her, even embarrassing her by attending her parent-teacher events. Widad was the widow of one of al-Bashir's closest military friends, Ibrahim Shams

al-Din, a fellow plotter in 1989, who had been killed in an aircraft crash while on duty. Marrying some of the many military widows was made fashionable by the president's choice. I spent some time, alone, with the stepchildren and, although they disliked the isolation of being in the first family, they clearly adored their stepfather whom they had called 'Dad' from the start. The president would often reminisce about his friend to the children so that they could get a full understanding of their birth father.

I spoke to Madame Widad, as the president's second wife is addressed, on a number of occasions. She was bright and charming. Our official interview was in Arabic, but she spoke good English when we chatted informally together. I could not help but ask the obvious Western question about competition with the first wife. And she said, honestly. 'Yes there is competition, it's quite natural.'

She confided that she and her husband talked politics.

'Does he listen to you?'

'Sometimes,' she said. 'He can be a good listener.'

Working habits?

'He often works late, but doesn't bring work home. He wants to come home with a "clear soul".'

And she lauded the president's humour. Some of it would be a situational quip, sometimes a formal joke. 'He tells a joke every day.'

I was too polite to ask the wife whether her husband managed a *new* joke every day.

I have never met the president's older first wife. I did ask for a meeting, but I was told she was unwell. She officially runs a major NGO, as does Madame Widad – although of course it is a very different NGO.

Omar al-Bashir also raised the children of his older brother Ahmed, after he died. Then he brought up the three daughters of his younger brother, Mohamed Hassan, who is almost the spitting image of the president, 'albeit much better looking', Hassan would tell me – regularly. Mohamed Hassan was working in the UAE, and his daughters were studying in Khartoum. I interviewed or spent considerable time with the three very attractive nieces; all were highly independent, modern young women. They complained about their uncle's strictness, but said that 'Umo' – Uncle Omar – was very loving and supportive.

I asked one highly-educated niece whether she thought her uncle should not stand again. No, she said. 'He should have got out at the top – after Naivasha [after the signing of the successful peace talks with the south in January 2005].'

Returning to domestic matters, the nieces said he is 'really a morning person'. They would cook his breakfast personally, a sort of porridge called *foul*. This Sudanese speciality looks but does not taste foul. They did not like the pressure of being in the first family. Nor did they ask for favours in school and college; rather they felt they had to do even better to overcompensate for any allegations of favouritism. One niece confessed that when she travelled she tended to avoid using the surname 'al-Bashir' so she could behave as a normal citizen.

It is deeply ironic, not to say hypocritical, that all the president's younger family members, the stepchildren, the nephews and nieces and their spouses, all speak excellent if American-accented English. All have had first-class private-school and university education in Sudan, the Gulf and the UK. This point is significant: they were well educated, usually in English. Yet the first thing the Islamic revolutionaries did after 1989 was to Arabize and Islamize the schools and universities. Although universities multiplied, standards dropped. A whole generation of Sudanese high achievers lost out on a good education, not least in the international language of English. The president's brother, Mohamed Hassan, did admit to me that it was the president's biggest mistake: 'The changes in the educational system – he should have kept English.'

The president is undoubtedly a dedicated family man who insisted that his greatest influence was his father. Omar's father, Hassan – although illiterate – encouraged his sons' education. Initially he could not write, but taught himself to read by endlessly scanning newspapers. Later the autodidact collected a small library of books in his home. Hassan continued to be the dominant influence on his son Omar, right up until his death in 1986. He cautioned his son in 1983 and 1984 not to engage in politics while in the army. He was so concerned about the dangers that he urged his son to resign his commission. Had he not died when he did, perhaps the son may not have led the 1989 coup. Al-Bashir senior seemed a formidable sort of fellow. I watched a long family video of him recorded in the early 1980s. Despite his somewhat uneducated northern accent, he spoke very fluently, confidently and directly to the camera; at length in a strong voice. Obviously the son, the future president, learned rhetorical gifts from his father.

Sarasir was and is a very political village. During my visit to the school, mosque and family homes, the locals and al-Bashir's extended family engaged in heated debate about current affairs. As in much of Sudan, everyone is an amateur politician.

I recalled a recent conversation with a senior intelligence officer in a

narrow dusty lane in central Khartoum. A poorly dressed elderly woman was selling glasses of tea from a small tray. 'There are twenty million politicians in this country. See that tea lady there,' the officer said, pointing. 'She would have strong political opinions and she would share them.'

I thought: True, they are quite free to chat on the streets or in cafes, but far less free in the newspapers.

* * * *

Omar al-Bashir's family moved to Khartoum North, to a small pink-painted house opposite a hostel for mentally ill people. It was at this home that I had arranged to meet some of the leader's secondary schoolmates and a handful of his teachers, now long in the tooth, but alert. Omar attended a government-run school in Khartoum North.

I was inundated with polite platitudes:

'He was a quiet boy, very disciplined.'

'Very religious, or perhaps I should say traditionalist.'

'Always knew he would become something.'

'If you wanted a prefect, you would choose Omar.'

'He was especially good at maths and English.'

I persisted, especially with a teacher who spoke excellent English and who had lived in my home town, Cardiff. He was disappointed that Omar did not go to university – something that perhaps continuously played on the president's mind when he had to deal later with much better-educated people in his own party and urbane foreign politicians.

One of Omar's classmates confessed that 'when we were fourteen occasionally we would bunk off school and go to the cinema'. So, thankfully, young Omar was not a saint. More interestingly, I discovered from his teachers that around about age 15-16, Omar was kicked out of the Muslim Brotherhood for smoking. That fact has been left out of his official CV. But Omar had relatives in the movement and he was later allowed back in.

Al-Bashir was not lazy. He played a lot of sport, volleyball and squash as well as football. Although keen on sport, he did not possess an athletic or imposing build. Relatively short, at about five feet nine inches, he had to work on his fitness. He was also usually short of money. He worked in school holidays helping his father in his farm-work as well as with a local mechanic in his garage.

It was partly financial pressures that prompted his move into the army rather than university. Young Omar wanted to be a doctor (a career taken up

by one of his brothers). His second choice was a soldier and his third a teacher. He completed his Cambridge Certificate and he joined the armed forces, initially – he hoped — to train as a pilot.

Recalling his uncles' service in the imperial forces, the young Omar had also hoped to train in Britain. 'I was going to study in the UK, but the UDI crisis stopped me,' the president told me when we were reminiscing about his early life choices. He was referring to Rhodesia's illegal declaration of independence in November 1965. Britain's half-hearted reaction to the white rebels caused outrage in many African states.

He studied for two years at the Sudan Military Academy, and was commissioned as an officer in December 1966. The imperial connection was cemented by British Army instructors (who were later replaced by Russians). The cadet officers at the military academy were divided into three platoons, each with about 100 cadets. Omar al-Bashir was in the 3rd Platoon. I spoke to some of the president's fellow cadets, who admitted that the 'British had left many good principles'. Cadet al-Bashir responded well to the British-style discipline system, according to his fellow cadets. After commissioning, he was sent to Darfur, where he spent two years in all. For the young lieutenant it was a tough posting; first at Abokarinka, west of Nyala, as a rookie officer in charge of thirty-two men. In the desert and savannah terrain, his job was to contain the traditional tribal disputes.

A fellow cadet in the same cohort, later to become a general, told me, 'He had the charisma of a commander from the start, and he was a decision-maker, although he was a simple man, from a simple family. I have never seen him drink alcohol or smoke. He is a very religious man, but full of jokes.' Privately, the general told me *sotto voce* that his old friend had been a great soldier, but the ruling party had 'poisoned his mind'.

A number of senior officers, some retired, commented on Omar al-Bashir's personal physical fitness, leadership from the front in combat and popularity with his men. One general said 'He showed good moral as well as military leadership.' Another very senior officer told me, 'The President still stands up when he meets his former military superiors – he is a real army man.' Again – in private – some of his army comrades, still loyal to him, blame the ruling party for 'capturing' him. Some of his most loyal military and intelligence leaders supported an aborted palace coup in 2012, against the party, but not him, some would say. Nevertheless, the army remained a major part of his natural constituency throughout his long career, partly because of his inter-personal skills. He was seen as a natural leader, but who would consult carefully with his colleagues. Professor Ibrahim A.

Ghandour, a big beast in the ruling National Congress Party, put it best, in his immaculate BBC English: 'Nobody pushes the President around, but he is a man of *Shura*.'[2]

After his Darfur posting, Lieutenant al-Bashir underwent six months' intensive paratrooper training to secure the coveted red beret. Then, for nine months, he studied at the Egyptian Military Academy in Cairo where he specialized in further paratrooper training. He was taught by Russian instructors and became a fully fledged paratroop officer in 1969. During his career, he completed sixteen jumps, though none were operational. He was promoted to captain in 1971.

In 1973 he returned to Egypt. 'We were sent as an act of solidarity during the 1973 war. We were proud to go,' said the president. He was part of a joint Sudanese-Egyptian special forces group, which was based forty miles from the Israeli front line, as a shield against the possibility of General Ariel Sharon's advance formations pushing on into Cairo. Omar al-Bashir experienced intermittent shelling, but was not part of the SF units which crossed over the Suez Canal in hit-and-run ambushes on Israeli troops.

The young officer showed promise in liaising with foreign forces, because he was sent in 1975 to be a military attaché in the United Arab Emirates. It wasn't all diplomacy: he did a tour of duty in 1976 with the Arab League peacekeeping force in Lebanon. He was promoted to major while serving there. He also spent time at the infantry school in Abu Dhabi. From 1979 to 1981 he was a garrison commander in Khartoum; in 1980 he had been made a lieutenant colonel. Next, he was promoted to be a commander of an armoured parachute brigade, a post he held until 1987. In 1981 he had been promoted to full colonel. During this period, he obtained, in 1981, a master's degree in military science from the Sudanese Command and Staff College. In 1983 he achieved a second master's in military science in Malaysia. He wrote his dissertation, in English, on counter-insurgency. (In 2011, he secured another master's via part-time study at Al-Jazeera University in Medeni.)

Extensive combat experience was gained in the south of his own country. During his home postings, he spent a total of three years conducting counter-insurgency operations against the SPLA. Some of it was conducted from his role as garrison commander at Mayum, in the oil-rich southern Unity state. While there he became an expert in working with the pro-Khartoum Nuer militias, especially the 'army' formed around Paulino Matip Nhial. The future field marshal described the conditions as very tough, especially during the rainy season. Although privately he admitted that leading an armoured

brigade was a career highpoint, he said, 'During the war, there were no happy times.'

'The people were suffering in the south. But we were also suffering from very bad conditions – we suffered from shortages of food, equipment and medicine. The SPLA would often attack when we were sleeping at night.' Typically, al-Bashir would lead from the front, even on foot patrols of four or five days' duration.

I asked the president whether he had been wounded in combat.

'I had a lot of close calls, but, no, I was never wounded.'

Most presidents and military men with lots of combat experience tend not to underplay their pasts; al-Bashir seemed to be genuinely modest about his career achievements. He played it straight.

* * * *

A number of his toughest critics, including American envoys, accepted that, although Khartoum politicians had a reputation for deviousness, the president always played a straight bat, to use a cricketing analogy. I spoke to a number of senior journalists in Khartoum who knew the president well. One said that he had travelled a lot with al-Bashir abroad. 'There is no pomp and circumstance – you feel you are travelling with a normal person. We share meals with him. Whenever he meets journalists he will ask about their families.' Another commented on how the president would visit ordinary people's homes and weddings, and always without guards.

If a journalist travels a lot with a president and goes to the same weddings, he is obviously an insider. So I spoke to another senior hack who had been on the inside of the government's prisons a number of times. I asked the opposition writer about the alleged corruption in the al-Bashir family. He said that he 'was sure the president was not personally corrupt', but some of the people around him probably were.

So why doesn't he stop them?

'Fighting corruption is like fighting an octopus,' said the independent journalist. 'But a number of politicians have been prosecuted – two of the president's relatives have been put in jail for bouncing a cheque.'

The anti-government journalist left a final thought with me as I shook hands to leave: 'Without Bashir, there would have been three or four countries, not two.'

* * * *

Omar al-Bashir developed an impressive military pedigree, but how did he become a political soldier? From schooldays he had been involved with the Islamic movement. His temporary postings with the Egyptian army must have influenced him with some of the Nasserist ethos which pervaded many Arab armies. But only so far in al-Bashir's case, because Islamic tendencies would have precluded the modernizing, *secular* approach of military revolutions in neighbouring states. After 1977, and with Numeiri's regime reconciling its differences with the Brotherhood, the Islamist movement began a conscious policy of infiltration of the armed forces. Despite attracting the attention of Numeiri's *Mukhabarat*, al-Bashir managed to quietly work away at securing the influence of the Islamist movement in the army.

The British tradition of an apolitical army had been lost in Sudan. As Omar al-Bashir admitted to me, 'The armed forces were involved in politics. There were various political movements *within* the army – Ba'athists, communists, Islamists ... Remember that the communists in the army tried to stage a coup against Numeiri in 1971.'

After Numeiri was toppled in 1985, there were rumours that al-Bashir was involved in a possible coup attempt to bring into power the National Islamic Front, led by the charismatic and erudite preacher Hassan al-Turabi. To keep him away from the limelight in Khartoum, and safe from the immediate attentions of the secret police, sympathetic senior generals posted al-Bashir to active combat duties in the south. He performed well and was promoted to brigadier in 1988. He was on active duty until just before the coup of June 1989. The Islamist movement had chosen him as potential leader of their military wing.

Al-Bashir was a chosen one, but not initially *the* chosen military supremo. Partly because of chance, some of the plotters were removed. One was posted to Egypt, another was sent to an isolated southern posting. As Omar al-Bashir confided to me, 'We thought we had a 50-50 chance of succeeding. Originally about 300 officers were involved, but many were moved.' Some of the others were divided on the timing.

The core conspiracy was reduced to thirty officers, ranging from lieutenant to general. Al-Bashir did much of the careful preparation. As a commander of mobile armoured units he was in a key position. 'I was the leader. It was one of the crucial points of my career. We had strong armoured backing, but it proved unnecessary and we did it from the *inside*. It was a success, and without any fighting or bloodshed.'

After the coup, al-Bashir became minister of defence. In 1993 he became

President of Sudan and later in his presidency was promoted to field marshal. Not bad for a farm boy. But he was an army man through and through. How would he sublimate his loyalty to the army to the demands of party politics? He had proved himself as a military leader, and had exhibited skills in underground politics, but how would he rate as a player on the national and international political stage?

Chapter 5

The Duopoly

On the night of 30 June 1989 Brigadier Omar al-Bashir led the coup with a small core officer component of just thirty. 'The people were fed up with Sadiq al-Mahdi,' al-Bashir told me straightforwardly. 'We did it from the *inside*.' His years in the paratrooper units around Khartoum meant that they followed his orders in efficiently capturing the strategic sites in the three towns. It was rapid and bloodless like the 1969 Numeiri military takeover. And for a while many Sudanese assumed that it was a coup like any other. It was not: al Bashir would still be in power more than twenty-five years later.

The military trappings were initially similar. The officers set up a Revolutionary Command Council, which echoed the Nasserite tradition. But this was by no means a secular putsch. It had been carefully planned with the National Islamic Front party. Its head in the constituent assembly, Ali Othman Muhammed Taha, had spent months joint-planning with al-Bashir as to precisely what the coup was intended to achieve. Al-Bashir's radio and later TV address talked about al-Mahdi's 'failures of democratic government'. Few Sudanese expected an Islamist revolution to replace the very flawed democracy; a revolution fashioned by a visionary who had planned for this day for decades: Hassan al-Turabi. Al-Bashir worked behind the scenes to stabilize the army and concentrate on trying to claw back the military defeats of the previous government. Al-Turabi, however, was soon to hog the spotlight at home and abroad, via his incessant travelling. The military leader behind the coup kept a low public profile. This was not to be a cult-led revolution based on the Nasser model.

Although al-Bashir's underground political work in the army had roused the interest of the state security organs and military intelligence, especially under the paranoid Numeiri, the new military supremo was not known to the general public. When he made his first broadcast to the nation immediately after the coup, al-Bashir's mother was travelling from Medeni to Khartoum on a public bus which stopped because of a street crowd,

roused by the putsch. In her astonishment at finding out the new leader's name, she told some of those around her that it was her son who had led the coup. Few believed her at the time. Except for one brother, informed a few hours before, al-Bashir had not risked his family's safety by confiding in them; just in case it all went wrong. He had reckoned that his chance of success was 50-50, despite the years of planning.

The leading northern politicians, including Sadiq al-Mahdi, were locked up. Al-Bashir also cleaned out potential opponents in the army by also accommodating over 100 officers in Khartoum's Kobar prison. More military purges soon followed, amid rumours of a counter coup. So far, so obvious. Then a very unusual component of the coup occurred: al-Bashir sent his spiritual patron to Kobar as well. Al-Turabi was given time to pack a suitable case, not least containing the Imam's beloved books. He was given a very comfortable minimum-security cell, although al-Bashir made the point that the other political leaders were also well-treated. 'It was the Sudanese way,' he insisted. The junta apparently wanted to show its even-handedness to all political leaders. Perhaps the designers of the coup wanted it to look like a normal nationalist military coup to save the country from inevitably incompetent politicians. And perhaps they wanted to smuggle in an Islamist revolution without upsetting the Egyptians or the West. A born teacher, al-Turabi spent his few months in comfortable confinement lecturing fellow inmates on the new Islamic state he would soon create. This was not fantasy for, when he was released, all the new military leaders, led by al-Bashir, took the *bayaa* oath of allegiance to him, a practice inaugurated by the Prophet himself. At the time al-Bashir said he was proud to follow al-Turabi's instructions – 'without hesitation'.

Not only the new military boss and his fellow-travelling officers, but a section of a whole generation of intellectuals was prepared to venerate the temporary jailbird as the architect and imam of the Islamist revolution. The (brief) jail term was oddly prophetic, for al-Turabi was to spend a lot of time in prison or under house arrest in the next twenty-five years, and not of his own volition. Al-Turabi created the revolution that was later captured by his co-plotter, al-Bashir. The spiritual leader then spent years undermining the military president, and working with the many enemies of the regime abroad and in the south. In many other countries he would have been executed for treason, but somehow the spell that al-Turabi cast over a generation of students, military officers and politicians was still potent, despite their subsequent disillusionment with him. Over the years I have asked hundreds of former acolytes of al-Turabi, some in power in Sudan and others in exile

in the West, about this paradox. Very few would directly castigate him, not out of fear but out of lingering respect. The most they would say was, in essence: 'He was/is a great imam, but a bad politician.'

If Sudanese history is a tragedy, then Shakespeare's *Macbeth* is perhaps an analogy. From 1990 to 1996 al-Turabi fashioned and led the revolution; from 1996 to the coup within a coup in 1999 his star waned. Thereafter, even when in prison or under house arrest, al-Turabi hovered like Banquo's ghost over the Sudanese polity. His power was sometimes exaggerated and he later became a convenient straw man for the regime, but much of his influence was real, formidable and malevolent, for example his intercession with Khartoum's enemies, especially in Darfur and the SPLA. It was fitting for a man committed to a universal faith that he appeared to be everywhere, lurking just beyond the horizon, if not behind the curtain, when peace deals were suddenly derailed. The story of northern Sudan's recent political life cannot be understood without appreciating the initial duopoly of power: the Hassan-Omar double act. In the beginning it was clear who was pulling the strings, but after a year or two, the power shifted to a more balanced diarchy, then in a few years the military took back the reins, and al-Bashir became the undisputed leader. How this happened and how it affected the civil war dominated the first decade of the al-Bashir presidency.

Within weeks of the June revolution, it became clear that this was not just a bunch of disgruntled middle-ranking officers, unhappy with Sadiq al-Mahdi's floundering war strategy. A core of officers inhabited a defined Islamist programme, devised by al-Turabi. The remnants of secular influence, especially unions and other political parties, were banned. Nearly all senior army and police officers not sympathetic to the Islamists were ousted. Most newspapers were closed and the state radio and television closely supervised. The surviving media made it clear that the RCC government was committed to orthodox Islam, Islamic law, and also Islamic dress for men and, especially, women.

The RCC was technically the state's supreme body. Behind this façade stood a *shura* called portentously the 'Council of the Defenders of the Revolution' which met in secret after curfew. It comprised some zealous army officers, but it was dominated by NIF civilians. The Council, dubbed the 'Committee of Forty', was chaired by the energetic head of the NIF, Ali Othman Muhammed Taha. One close observer said his 'low-key style, his child-like features and his apparent quiet demeanour' encouraged many people to overlook his much tougher side. Taha had been at the same Khartoum North school as al-Bashir, although the future president was two

years older. He had been al-Turabi's personal assistant as well, and was for long a true believer. After disillusionment set in, Taha's star rose alongside al-Bashir's and he became a vice president, and later a chief fixer of the 'final' peace deal with the south in 2005.

In January 2014, Taha was shifted sideways from real power and went into semi-retirement. He felt able to talk more frankly when I visited his plush government-owned house in Khartoum. I asked him when the Bashir-Turabi breakdown began. History usually suggests 1996 or sometimes even as late as 1999. Looking back, Taha said:

> The split started early in the nineteen-nineties – as early as ninety-one or ninety-two. Turabi wanted to be the kingmaker. We accepted that. The way he did it was the problem … It was all about political power, not religious ideology.

The tough-minded Taha was clearly emotional when he described the events of two decades before. And he was still conflicted about al-Turabi, even though he said, 'He has done so much damage to the president, the people and the country itself.'

This was in the future. At the beginning of the revolution al-Turabi was seen by Islamists as the saviour of the country. But the new government had little popular support in the rural areas or in the towns among the more secular intelligentsia and commercial middle class. Not surprisingly, internal security became the RCC's priority. The intelligence system had ossified under Mubarak al-Mahdi, the former prime minister's cousin. The professional formal structure, later called the National Intelligence and Security Service (NISS), was revised along traditional lines. It was divided into an internal branch, similar to MI5 in the UK, and an external branch, not least to spy on exiled Sudanese, in the West and Middle East. The parallel here was Britain's MI6. A third unit was set up to deal with military intelligence; that was not just to collate useful military data, at home and abroad, (cf the Defence Intelligence Staff in the UK), but also to monitor the constant rumblings inside the army. Alongside the full-time professional structure a new more informal Islamic system comprised a much bigger part-time army of students and young Islamists called the *Amn al-Jabha.* After the 1989 revolution that was the common term used when Sudanese whispered about security matters, although foreign experts still used the generic Arabic term of *Mukhabarat* or NISS. The *Amn al-Jabha* also co-operated closely with the numerous members of the Popular Defence Force

that was originally set up at the end of the previous government, but was fully developed as an Islamist military and intelligence organization, under the influence of al-Turabi. Much of the money to fund these Islamist organizations came from the Faisal Islamic Bank. Major General Bakri Hassan Saleh, a revolutionary zealot, was put in charge of the whole system. The secret services were to play a dominant role in ensuring the stability of the government for decades. Ironically, it usually managed to defang the coup potential of the army, but – reviving the age-old question, *quis custodiet ipsos custodes* – it proved to be the only state organ which could later seriously threaten the system erected by al-Bashir

The internal branches of the *Mukhabarat* set about removing all potential opposition in the three towns and other urban centres. They also enforced Islamist standards. Female state employees were encouraged to go home and look after their families; those who were deemed absolutely necessary had to dress in conservative Islamic style. Many professionals, particularly doctors, lawyers and, by definition, journalists were imprisoned, usually without trial. The judiciary was also purged. Detention camps were set up. Foreign media reports listed the 'disappearances' and the torture meted out in the 'Ghost Houses' (so called because people were picked up at night, when the ghosts were about). Khartoum disputed these accounts, but the public floggings for manufacturing, owning or even drinking alcohol were publicized. Drug dealers were also executed publicly. Illegal dealing in foreign currency was punished, though with sanctions later and a purely cash economy it became almost a patriotic duty to deal in foreign currencies, especially US dollars, without which the economy would seize up. The draconian imposition of *sharia* law prompted an exodus of professionals, especially doctors and engineers, whose skills were valued throughout the Middle East.

A part of the sudden growth of the Sudanese diaspora consisted of politicians who had been released from confinement or who had fled to avoid jail. The displaced political parties, unions and professional organizations, all hostile to the 1989 coup, formed the National Democratic Alliance (NDA) based in Asmara, the capital of the soon-to-be independent Eritrea, which had fallen out with Khartoum. The SPLM joined the NDA in 1990. The northern politicians still debated the tired questions about *sharia* law in the south and secession versus unity, but since the SPLM was the only NDA party with an army that could defeat the hated NIF government, the exiled northerners tried to fudge a compromise. Along with other dissident groups such as the Beja Congress, they agreed on the Asmara

Accords (June 1995) to keep fighting until the NIF regime was overthrown. All the plans of frustrated exiles and guerrilla fighters were predicated on what they all assumed would be a *temporary* revolutionary regime in Khartoum. Nearly all the Western experts on Sudan also regularly predicted the imminent collapse of the al-Bashir government – for decades.

Meanwhile in Khartoum the RCC and NIF rapidly took control of the military, the executive and also the judiciary. They wanted a total revolution. As Mussolini put it: 'All within the state, nothing outside the state, nothing against the state.' Al-Turabi wanted to create a theocracy where enlightened Islamic scholars meeting in a *shura* would reach a consensus on interpreting the divine will. The tough September Laws initiated by Numeiri were replaced by another harsh version of *sharia* throughout the country, thus obviating any hope of a deal in the south. NIF apologists argued that the absence of beheading, for example, ensured the new code was less harsh than Numeiri's version. Sudan was becoming the first Sunni theocracy, Khartoum suggested. The West, especially the Americans, argued that Sudan was copying Iran, its *bête noire*. Khartoum's defenders explained that Iran could never be a model. For example, they, as Sunnis, had no system of direct rule by the clergy, the Ayatollahs, as in the Shia approach, and insisted that they were applying a form of Islamic democracy.

Nevertheless, if Iran was not a religious model, Khartoum sought security advice from its new friends in Tehran. In December 1991 the Iranian President, Ali Rafsanjani, visited Sudan for four days, along with 150 advisers, mainly security and military experts. This led to the permanent stationing in Khartoum of Hassan Azada, head in Lebanon of the *Pasdaran,* the Iranian Revolutionary Guards. Later, *Pasdaran* specialists in artillery and logistics followed. The Iranian connection initially focused on assistance with the Popular Defence Force (for details, see Appendix). The PDF was intended to galvanize the whole of society, as well as bolster the overstretched army. Planned to number over 100,000 volunteers, the PDF's elite would take a combat role in the south, and a counter-coup role in the three towns. Media and mosque campaigns emphasized the jihadist duty and the glories of martyrdom. Some middle-class youths, especially students, were not entirely convinced of the advantages of swapping their degrees for an early entry into paradise. Eager volunteers there were, however, especially as a PDF recommendation was often required for a job, continued study or even an overseas trip. (A certificate proving service in the army was also required for some state employment, including doctors.) Others were press-ganged into the PDF. Some PDF units – comprising

genuine volunteers for combat – did perform well, although the initial training was just three months. Occasionally, the Iranian influence inspired futile human-wave attacks against astounded SPLA machine gunners in entrenched positions. The army was often opposed to fighting alongside the PDF volunteers because of their inexperience, and because so much money was being diverted to this ideological rather than military mission. The PDF worked better in the countryside, especially in the west, where residents were often well acquainted with small arms. Sometimes the PDF merged into tribal militias, with dangerous results later in Darfur. Nevertheless, even among the faithful in the three towns, the often coercive recruitment methods of the PDF proved unpopular. After al-Turabi's star waned, the PDF was often seen as a political, not a religious or military, endeavour.

Nevertheless, the Iranian influence and the style of PDF recruitment did contribute to the growing Islamist nature of the regime. Southerners and Christians were confirmed as second-class citizens. So were women. True, Sudan did not go in for the Afghan burkhas, or the princess-head-chopping and driving bans of the misogynistic Saudis. And part of the intended 'clean up' was genuinely trying to protect the honour (and property rights) of women. Prostitution, pornography and the use of the female form for commercial purposes were forbidden. The *tobe*, traditional flowing robes and head covering, though not necessarily the veil, were promoted. Al-Turabi preferred the more modern *ibaya* dress, more like a kaftan, and opposed the more restrictive *tobe*. He had liberal views on the role of women compared with most Islamic clerics. His wife, Wisal al-Mahdi, Sadiq's sister, was a well-known (and charming) women's leader, and a 'feminist' in the Sudanese context. I was a guest at the al-Turabi home, in the upmarket Riyadh suburb of Khartoum, for a small dinner, where she presided in her husband's absence, unusually for a conservative society. Also, on another occasion, I interviewed her on the flat roof of her home, to discuss the issue of female genital mutilation about which she was vociferously liberal. Al-Turabi was influenced by his wife on the question of women's rights, as Wisal confirmed to me. That might have explained why women, although second- or third-class citizens in Western terms, still had some of their rights protected, not least in (separate) education. The government continued to exhibit a fetish about women not wearing trousers, and was still threatening to flog those guilty of such sartorial infelicities decades after the al-Bashir regime was entrenched. The leitmotif of 'immodest dress', and the moral campaigns waged by the PDF in the urban areas, seemed odd to Westerners, especially in the face of a war which was being lost in the south.

Al-Turabi was a man of many contradictions. In 1996, for example, I interviewed him in his office of parliamentary speaker. We talked about the topic *du jour* – slavery. He argued that the Americans were using the slavery and terrorism issues to undermine Islam and the Khartoum government. 'The Americans know that the African-Americans are very sympathetic to Sudan,' he claimed. 'They want to persuade the African-Americans that US policy towards Sudan is alright because Sudan is involved in slavery. There is *absolutely* no slavery in Sudan.' We also talked about Osama bin Laden, who had lived almost next door to him in the Riyadh suburb. He stressed that the Saudi had been engaged purely in business matters, especially construction. Then the Imam talked about his studies in the US and France. One of the dicta that al-Turabi regularly trotted out to his acolytes about Islam versus the West was: 'We know them better than they know us.' Which was probably true. The Sorbonne-educated Imam was very clever and closely followed Western politics. Like many Islamists, he exhibited in private conversation a brooding belief in the appalling corruption of Western society and, like Lenin, an assurance of its inevitably self-destructive tendencies. On the other hand, al-Turabi rejoiced in his mastery of foreign languages and cultures. We did not discuss Sudan's most famous novelist, Tayeb Saleh, but Saleh's most famous work, *Season of Migration to the North* (1969) captured some of al-Turabi's ambivalence towards the West, and especially its women. Saleh, who sought exile in London, and work with the BBC, saw his novel banned in Sudan, even though it has been described as 'the most important Arabic novel of the twentieth century'. He was, however, rehabilitated in Khartoum and, when he died in 2009, a major literary award was named after him.

Al-Bashir was less fixated with the cultural and social issues, and even with the installation of a theocracy. He left those matters to his better-educated Imam. After the coup, the general was utterly focused on reforming the army and winning the war in the south. As a soldier's soldier, al-Bashir was determined to increase the size and efficiency of the armed forces. The Sudanese economy was still weak, however. The inherited annual defence budget was guesstimated at around $500 million, not including the enhanced internal security systems. Before the oil bonanza, the size of the army was increased by only ten per cent to around 65,000, although al-Bashir wanted to raise it to 78,000. It was still a volunteer force, and the unemployment levels were high enough to offer lots of recruits. As oil revenues came in, the army was pushed up to 100,000 and in 1998 conscription for the army was fully introduced from those aged 18 to 30. This was the first time

conscription had been used for the forces. The size of the air force was doubled, although the combat strength improved only slightly because of poor maintenance, and the lack of foreign currency to purchase spares. The PDF, which drafted in tens of thousands, was a stop gap. A small professional army and a large militia force disturbed the army top brass, but the militia experience in the west and along the border had worked to an extent, so the army sought to improve the training and integration of the *murahiliin,* in their various guises, until funds arrived to train a large professional army that could defeat, not just contain, the southern rebels. The PDF never became as effective as their occasional mentors, the Iranian Revolutionary Guards. In the south they sometimes performed well, as in operations in Equatoria and Blue Nile, but they also ended up occasionally as cannon fodder. In the west, they reverted to banditry on occasions. And, for all the martyrs' sacrifice, the PDF was not as potent as the Islamist revolutionaries had hoped. They were more successful in urban areas as a militia for the NIF in public order roles.

World Revolution

As with the Bolshevik revolution, al-Turabi's variant split those who advocated revolution in one country and those who believed in the world revolutionary mission. Once out of prison and officially under house arrest in the first months of the coup, al-Turabi worked with his wife on founding the International Organization of Muslim Women, which was set up in late 1989. The occasion for the acceleration of his world mission was the perceived humiliation of Arab states in the First Gulf War, and above all the positioning of US infidel troops in the same country as the holy places of Mecca and Medina. Khartoum's clunky diplomats incensed the Americans by appearing to back Saddam Hussein, though they later glossed their gross faux-pas by saying that they opposed the Western intervention to remove the Iraqis from Kuwait, while not endorsing the original occupation by Baghdad. Their explanation was usually lost in translation.

Partly for economic reasons, but also ideological ones, Sudan now allowed all Muslim brothers to visit the country without a visa. This enveloped brothers of all stripes, including battle-hardened Afghans. Al-Turabi started to travel extensively, including a return trip to the US for a Palestinian conference in Chicago. (He had first visited the USA for six months on a US government student scholarship in the 1960s.) In spring 1991 al-Turabi set up the Popular Arab and Islamic Congress (PAIC) as a sort of alternative but more radical Arab League. The first meeting in April

1991 was dubbed the 'most significant event since the collapse of the Caliphate'[1] by the subservient Khartoum media. Islamists from the Middle East were there in strength, but small groups also came from the USA and Britain. They secretly agreed to form the 'Armed Islamist International', an umbrella group for radical Sunnis. Al-Turabi toured and lectured in Islamist hotspots such as Afghanistan and Pakistan. Although he disagreed with much of what the Ayatollah Khomeini said and did, for example the *fatwa* on Salman Rushdie, the Sudanese visionary emulated some of the Ayatollah's techniques of circulating CDs and videos of his lectures, which were popular in many parts of the Islamic world. Al-Turabi's world mission soon led to a wide variety of radicals coming from Kashmir, Afghanistan, Pakistan and North Africa. Provocatively, Khartoum also welcomed *mujahedeen* from Egypt. The most controversial guest by far, however, was Osama bin Laden, who moved to a large house in a plush suburb of the capital in late 1991. His personal executive jet had its own secluded and well-guarded area at Khartoum airport. The presence of bin Laden was a major factor in the later US imposition of sanctions on Sudan.

Al-Turabi concentrated on his international objectives, confirming his relationship with bin Laden by allowing the Saudi millionaire to marry his niece, as bin Laden's third wife. Just coincidently, bin Laden also invested $50 million in al-Turabi's favoured Al-Shamal Islamic Bank in Khartoum. Meanwhile, al-Bashir quietly consolidated his own position domestically, especially in the military. In October 1993 the RCC was dissolved and al-Bashir became president of the republic. The new low-key president did not air his views in public about al-Turabi's comments on world Islamic renaissance, or the increasing American concern at the influx of jihadists into Sudan. Al-Turabi did not involve himself with any formal government role, appearing to believe that his internationalist mission was far more important.

While on a lecture tour of Canada, on 26 May 1992, al-Turabi, now 60, was attacked by an exiled Sudanese karate champion. Apparently, the disgruntled Sudanese, Hashim Mohammed, had not planned the assault. He said he just saw red when he happened to spot al-Turabi at Ottowa airport and hit the Imam twice with two hard jabs of the edge of his hand. Al-Turabi was severely hurt and spent weeks in hospital, recovering from a coma. He suffered for a long time with slurred speech and had difficulty in walking, but gradually recovered. Thereafter, whenever al-Turabi did or said something controversial, many Sudanese would give a knowing look and mutter something about 'that bump to the head, you know'. When I

interviewed al-Turabi in August 1996 he seemed extremely articulate and incisive. I saw no evidence of brain damage in his speech or walking. The urbane intellectual still continued to be at home, whether in a tie or turban, and to charm his many visitors and lecture audiences. The army and al-Bashir, however, grew less enamoured of their formal patron.

The US State Department was increasingly agitated about alleged terrorist camps in Sudan, for the foreign legion of *mujahedeen* who had been invited or sought exile in Sudan. Khartoum consistently denied the charges of terrorist enterprises. The Sudanese were also accused of supporting attacks on US troops who took part in the UN RESTORE HOPE operation in Somalia in 1992. On 26 February 1993 a bomb exploded in the World Trade Center in New York. Six Americans were killed. Although blamed mainly on an Egyptian Islamic group, Washington accused Khartoum of complicity. The US government listed in detail the foreign Islamic groups in Sudan, noting especially the Palestinian Liberation Organization and the Palestinian Hamas as well as Lebanon's Hezbollah, prime enemies of Washington's ally, Israel. Sudan was officially placed on the US list of states sponsoring terrorism. One writer described the Sudanese in-gathering 'as a Davos in the desert for terrorists'.[2]

Al-Turabi seemed oblivious of the decline of Sudan's position in the diplomatic world, especially in the West. Revelling in his new fame in the Islamic world, perhaps he didn't care. He appeared convinced that the collapse of the USSR heralded a new Islamic dawn. In December 1993 he held another bigger congress of prominent Islamists from around the world, including those from the Caucasus fighting the Russian army. Former senior intelligence chiefs from supportive countries such as Pakistan's Inter-Service Intelligence agency (ISI) were also there. The poor treatment of Muslim minorities in the West and Russia were highlighted and al-Turabi predicted that a united Islamic nation was on the horizon.

Southern Jihad

Khartoum's military had their focus on a much more proximate jihad: in the south. After a failed peace initiative by the former US president, Jimmy Carter, John Garang worked on securing the active support of African states, especially the more radical southern African countries that had secured victory in Zimbabwe and were now pushing to topple the apartheid regime in South Africa. The Namibian insurgents also helped in practical terms, by donating surplus arms to the SPLA. Garang worked hard to assuage suspicions that his unified democratic Sudan policy could still work, despite

the new hard-line government in Khartoum. Garang had to mend fences because his main support base in Ethiopia collapsed with the fall of the Mengistu administration in 1991. Garang had helped Mengistu fight the separatists in Ethiopia that had been backed by Khartoum, especially the Oromo Liberation Front. When the Khartoum-allied insurgencies in Eritrea and Tigray provinces merged into the Ethiopian People's Revolutionary Democratic Front (EPRDF) and conquered Addis, the new regime paid back its dues to Khartoum. The EPRDF ejected the SPLA from its camps inside the Ethiopian border and closed its offices and radio station in the capital. Hundreds of thousands of southern Sudanese refugees were also kicked out. Uganda took up the slack in military support for the SPLA, one reason why Khartoum later aided Ugandan rebels such as the Lord's Resistance Army. If Uganda became the military pillar for the SPLA, then Kenya grew into the main base for diplomatic and humanitarian succour for the southern rebellion. The SPLA had forged a coherent fighting machine, but it lacked a coherent political sensitivity to the social conditions in the south, exacerbated by the new refugee influx. Garang was regularly criticized for his domineering authoritarianism, not least for killing or imprisoning rival commanders, most famously his former close ally, Kerubino Kuanyin Bol. The Dinka commander was held in harsh confinement for six years in one of the archipelago of prison camps run by Garang. He managed to escape in 1993.

The big SPLA schism

Coming on top of ejection from the Ethiopian sanctuaries, the big split in the SPLA in 1991 was to undermine the military resistance for years and leave a political legacy that festered for decades. A number of commanders, including the usual suspects, Lam Akol and Riek Machar, planned to displace Garang. Khartoum assiduously courted these dissident commanders, but the majority of the SPLA top brass supported Garang, not least because unity was paramount at a time of weakness following the crucial loss of Ethiopia. Many Nuer, however, were prepared to follow their traditional general, Machar, and the Nuer units around Nasir openly backed him. Instead of toppling the SPLA, Machar and Akol, a Shilluk, responded by founding a rival organization, SPLA-Nasir. This hardened the ethnic divisions that plagued the southern resistance movement and also helped prompt the civil war after independence.

Nasir was a war-ruined shell of a town, but it had an airstrip that was used for relief flights by NGOs. It was also the venue for an unusual and

tragic story. Riek Machar and Emma McClune, a tall, beautiful and idealistic English aid worker, met and fell in love. They married (although Machar had a wife by a traditional marriage). After making love, Emma said, she would get up and help her warlord to write his manifestoes. Highly irritated by the young Englishwoman's intervention in southern politics, Garang once sarcastically described the schism as 'Emma's War'. The name stuck, and it became the title of a powerful and lyrical book by Deborah Scroggins.

Even more irritating for Garang, Khartoum sent weapons and cash support to the SPLA-Nasir. Re-armed, Machar pushed into traditionally Dinka areas and eventually the mainly Dinka command of the SPLA felt forced to retaliate. Machar's armed push was intended to show his strength and prise other commanders away from Garang, although attacks on the Dinka were much more likely to confirm Dinka solidarity around Garang, another classic Machar miscalculation. Machar's Nuer troops and militias, known as the 'White Army', captured much territory belonging to their rivals. The White Army was largely made up of Luo Nuer, from the Upper Nile and Jonglei, who would traditionally smother their faces with white ash. Their main preoccupation had been cattle-raiding, especially against their age-old enemy, the Murle people. On 15 November 1991 Machar's motley array of fighters captured Bor and killed over 2,000 Dinka, according to Amnesty International figures; other estimates were much higher. Although Machar dubbed the 'Bor massacre' a 'myth and propaganda' at the time, he apologized for the atrocity in 2012. The massacre was never forgotten in the south, and it became a brutal symbol of the Nuer-Dinka rift. Garang soon led the SPLA to inflict a major retaliation against the SPLA-Nasir, after the news of the massacre reached his HQ in Torit.

Despite the Machar-Akol trouncing by the 'official' SPLA, Khartoum continued to treat both commanders seriously. Al-Bashir, who had experience of divide and rule in the south, appointed a top-ranking military team to deal with Machar's militia. Senior military intelligence officers met Akol in Kenya and Germany to make vague promises of a federal south. Machar might well have thought that the new arsenal from Khartoum was more important, not least tactically, to fend off the SPLA advance. Khartoum had other ideas: using its new alliance, the regular northern army was allowed a free passage through Nuer territory to reach the core SPLA positions as far south as their HQ in Torit, displacing Garang. The SPLA general sought a new refuge in the deep forests of the Didinga Hills, beautiful and often shrouded in clouds.

Garang ordered a diversionary attack on the southern capital, Juba, in July 1992. The rebels temporarily captured much of the town, aided by southern troops in the garrison. Eventually, the attack was repelled with heavy SPLA losses, especially in equipment, which it could ill afford to lose. A number of Equatorian troops and civilians were summarily killed in Juba by government forces. Having held Juba, just, Khartoum did not go on the offensive, partly because of an intelligence assessment that suggested that the recent arrival of US peacekeeping troops in Somalia might presage an American no-fly zone in southern Sudan. This was wide of the mark, because the Americans proved incapable of controlling the air space even around Mogadishu where its helicopters were downed by local fighters.

Senior Equatorian commanders, not consulted about the Juba attack, now defected to the SPLA-Nasir. To further thicken the alphabet soup, SPLA-Nasir renamed itself SPLA/M-United and the SPLA was now sometimes referred to by outsiders as SPLA-Mainstream. Both SPLAs – whatever their titles – fought each other vigorously. (A little like in Afghanistan when the roughly forty m*ujahedeen* groups spent more time fighting each other rather than the Russian occupiers in the 1980s.) The northern army inevitably took advantage by deploying heavily armed convoys to try to retake towns such as Rumbek, which stayed in rebel hands, however. The army made more progress in the Nuba Mountains; the last town held by the SPLA, Um Durain, fell in August 1993. President al-Bashir then publicly announced that the whole of Nuba would be conquered by the next dry season.

Garang managed to keep his official SPLA from falling apart through iron discipline and increased foreign support. The Machar-led schism could never resolve the central contradiction: he advocated southern secession – in opposition to Garang's holistic view – yet Machar and Co had to rely on a tough Islamist Arab regime that was unlikely to grant that secession. The OAU, and especially the Nigerians, made several attempts to reconcile the Machar-Garang divisions and to unify the southern rebellion. The Americans, now much more involved in the Sudan conflict, suggested that the local organisation, IGAD (Intergovernmental Agency for Development), the main regional diplomatic grouping, replace the Nigerian peace efforts. Garang and Machar were brought together in Washington in late October 1993. Nothing much came of the meeting, but it was an important symbol of Congressional interest in the civil war, which would be soon manipulated by powerful US lobbies, especially the Christian right and African-American groups. Various IGAD-backed meetings in the region failed either to reconcile the southerners or entice Khartoum.

The fratricidal chaos of the civil war within the civil war allowed Kerubino to escape his hole in the ground. He was one of the most colourful SPLA commanders. A Catholic, born in 1948, he had grown up in the same Twic Dinka clan as Garang. Considered trigger-happy and impulsive by other commanders, he had represented the movement as 'deputy commander in chief' at the 1986 peace conference in one of the Emperor's old palaces near Ethiopia's Koka dam. With his omnipresent shooting stick, he used to give occasional press interviews in Nairobi, where his various wives and some of his twenty children were safely ensconced. He obviously harboured aspirations for the top job. So Garang's pre-emptive strike against his friend was probably not just Stalinist paranoia. As with so many other dissident southern leaders, Khartoum offered him the chance to form a pro-government Dinka militia, but Kerubino could not match Garang's popularity among his own tribe. He ditched the government side and resumed independent command in the south, managing in January 1998 to seize Wau briefly. On the strength of this achievement – he was an able field commander – he asked Garang to take him back into the main SPLA. Garang was not a forgiving man, but took back his old clan friend, though he kept him in HQ as a staff officer, not entrusting him with another field command. Angered by this, Kerubino once again defected north, where he allied with another renegade commander, Paulino Matip Nhial. Matip went on to lead the most powerful pro-government militia in south Sudan; he also set up a commercial empire among his Bol Nuer people. A competent field commander, Matip swapped back and forth between the SPLA and Khartoum (but with more strategic effect than Kerubino) and he also became a rival of another prominent Nuer commander, Riek Machar. It is not clear whether Khartoum's effective military intelligence had a hand in another plot to kill Garang in Nairobi at a meeting of IGAD, but it may have been involved in Kerubino's demise at the same time. Kerubino fell out with Matip and murky rumours surfaced of a shoot-out in which the old Dinka warrior met his martial fate. Few apart from himself ranked Kerubino as a national leader, but his chequered career did indicate the Byzantine world of southern leadership and the frequent successes of the north's intelligence agencies in manipulating it.

Pro-government northern militias sometimes used an old and highly offensive phrase to describe the divide-and-rule strategy: *Aktul al-abid bil abid* – kill the slave through the slave. More diplomatically, the technique was called the 'peace from within' strategy – doing deals with rebels who would work with Khartoum, unlike the official SPLA. This was soon

developed into a Peace Charter, formalized in 1997. It was redolent of the so-called 'internal settlements' adopted by the white regimes in Rhodesia and later South West Africa. The apartheid government also tried to do the same with its homelands policy, while cutting out the African National Congress. In the end, the whites had to deal with the real leaders of the liberation movements, just as Khartoum was to discover.

The SPLA-United continued to seriously hamper the rival official movement, but soon failed to live up to its own name of 'United'. Inter-Nuer tribal clashes as well as traditional non-political disputes with neighbouring tribes caused many casualties, especially now government arms were plentiful. The SPLA-United held its first major congress at Akobo in September 1994 to re-organize itself. In the traditional southern manner, a new name, it was thought, would work wonders. Some of the commanders who had been considered too close to Khartoum, such as Akol and Kerubino, were ousted. Machar, the great survivor, took command of the newly minted South Sudan Independence Movement/Army (SSIM/A). The strategy failed and Machar retreated to a government outpost at Kodok on the White Nile. Many of his Nuer troops and commanders rejoined the official SPLA. Desperate, Machar travelled to Addis to join up with the exiled opposition to Khartoum, the National Democratic alliance, in which Garang was already a prominent, if ill-fitting, member. Machar, however, was kicked out of the country by the new government. He tried reviving his local support in Nuerland, but he was, for the time being, a busted flush.

He had nowhere else to go but Khartoum. With Kerubino at his side and other tribal leaders, he signed a separate peace, more an unconditional surrender, with President al-Bashir in April 1997. It was based on the Peace Charter signed a year before. The charter made clear that Sudan would remain unified, but at some unspecified date southerners could have a referendum on a federal system. This was a great propaganda tool for the government. In the summer of 1996 I travelled around the south on the so-called peace train. The tall imposing Machar, charismatic despite his lazy eye and gap-toothed smile, could charm foreigners with his educated manner (he was awarded a PhD at Bradford University in the UK) but – except for his ever-loyal core of Nuer — he seemed to have trouble persuading the smallish crowds in government-held towns such as Wau that he could replace his arch-rival, Garang, or that Khartoum would grant meaningful southern autonomy. A sad brass band, dressed in a strange uniform apparently from the French revolutionary period, greeted Machar when he arrived at the main government garrison inside Wau; it was the most tuneless

music that I had ever heard in my life. It was symbolic of the pointless charade.

According to one acute observer, 'The Peace Charter had not only not brought peace, but it had failed to halt the SPLA's political and military resurgence. Neither Riek nor the government had much to show for their collaboration.'[3] It also accelerated the civil war within the Nuer. Machar had helped to weaken – temporarily – the SPLA and also effectively handed over the control of the oilfields to Khartoum.

Paulino Matip, who had been made a major general in the Sudan army, was incensed that Machar had been chosen by Khartoum to lead the Nuer and refused to serve under him, though the government continued to pay Matip to deploy his Nuer militia to protect the oil installations at Bentiu. Machar had disgraced himself in the eyes of many southerners. The SPLA had been battered by infighting and heavy government offensives in 1993-94. In April 1994 Garang had convened a large congress at Chukudum. Roughly half the 500 delegates were civilians, the rest were commanders from across the south and the Nuba Mountains and the southern Blue Nile regions. Garang wanted to demonstrate his support from both civilians and military, and that he was concerned about the peasantry, despite numerous allegations of human rights abuses. The SPLM was poorly organized abroad, but a handful from the diaspora also attended. The question of independence versus the unified 'New Sudan' was not resolved, but the appearance and some of the substance of the SPLA's claim to represent all the southern peoples were attempted.

The resurgence of the SPLA, along with the effective collapse of Machar's army, meant that the bulk of the fighting was now done not by pro-government southern militias, but the regular army and the PDF. Khartoum endured heavy casualties, including the death of one of President al-Bashir's brothers, Ahmed, who had been a volunteer in the PDF. Government forces started to pull back as the SPLA won a series of victories in Equatoria in late 1994 and in Bahr al-Ghazal in early 1995. In these reverses the PDF especially, as well as the regular army, suffered thousands of dead and wounded in the first months of 1995. Despite strict censorship, Khartoum was always a leaky place for secrets, and soon reasonably accurate reports spread on the rumour mill. Volunteers for the PDF dried up. At the beginning of 1996 morale was so low in the government forces that occasionally garrisons in the south would refuse to leave their fortifications. Al-Bashir conducted another purge of officers to remove the defeatists. Except for a number of major towns, the SPLA now took control of almost

the whole south; militias which had been long-term Khartoum allies turned their weapons in favour of the SPLA. Even tough Arab militias in the Nuba Mountains made deals with the SPLA. A whole battalion of the Sudanese army surrendered at Yirrol, south-east of Rumbek. By spring 1996 the SPLA looked unstoppable. The military-led northern revolution seemed to be stuttering; al-Turabi's emphasis on forging a new jihad by moral conversion could not work against the guns of the SPLA. Society might have been changed, but the battlefield had not.

The Egyptian assassination attempt

Al-Turabi did travel to the south on occasions to rally the faithful in their regional jihad, but he was still obsessed with the international mission. His third Popular Arab and Islamic Congress was held in Khartoum in March 1995. All the main Islamist groups attended, including those on the frontier of the *Umma*, the *mujahedeen* from the Philippines, for example. A major sticking point for some attendees was the use of 'Arab' in the Congress title. Many African delegates were unhappy, as was Louis Farrakhan's delegation from America. Farrakhan, a calypso singer-turned imam, led the Nation of Islam. Amid the fractiousness, al-Turabi did manage to broker an agreement between rival banned jihadist groups from Egypt. This seriously discomfited the Egyptian government of Hosni Mubarak, who had a strong personal distaste for al-Turabi's Islamist ventures. Cairo had on occasions used the ancient territorial disputes between Sudan and Egypt to crank up pressures on Khartoum. He also cracked down again on the Muslim Brotherhood and its affiliates at home.

The March summit of Islamists was used by Egyptian radicals to finesse a plot to kill Mubarak, according to Egyptian intelligence. It had been planned for over a year. Dr Ayman al-Zawahiri, later to lead al-Qaeda after its founder's death, was allegedly the ringleader (though bin Laden was a resident of Khartoum at the time). Two months later, on 26 June 1995, President Mubarak flew in to the airport at Addis Ababa to attend the annual OAU summit. Egyptian intelligence had prudently provided their president with an armoured limousine to drive him from the airport into central Addis. A blue van pulled in front of the limo and two men came out firing machine guns, while snipers on nearby rooftops joined in. Mubarak was saved by his bullet-proof glass and his bodyguards, who killed five of the would-be assassins. The president ordered his limo to return to the airport from where he promptly flew home and gave an impromptu press conference at which he blamed Sudan for the attempted assassination (the third of six serious